بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة المعارج

مقدمة :

سورة المعارج من السور المكية .

أسماؤها :

سورة المعارج ، وقد اشتهرت تسمية هذه السورة بسورة المعارج ، وسميت في معظم المصاحف وفي معظم التفاسير .

ووجه تسميتها بذلك لقوله تعالى (تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) .

ومن أسمائها سورة سأل سائل ، عرفت بهذا الاسم في عهد الصحابة .

أغراضها :

تقرير عقيدة البعث .

تكلمت السورة عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السماوات .

تحدثت عن صفات المؤمنين وما يتحلون به من صفات عظيمة وما أعد لهم من عظيم الأجر .

ختمت السورة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه .

(سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً (٦) وَنَرَاهُ قَرِيباً) .

[المعارج : ١- ٧] .

(**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**) أي : دعا داع واستفتح مستفتح تكذيباً واستبعاداً وتعجيزاً (**بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**) أي : أن العذاب واقع لا محالة .

كقوله تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده) . أي عذابه واقع لا محالة .

عن ابن عباس في قوله (سأل سائل) قال النضر بن الحارث .

- لم يعرض الله تعالى لاسم هذا المستهزئ تحقيراً له ولشأنه .

قالَ المفَسِّرُونَ: نَزَلَتْ في النَّضْرِ بْنِ الحارِثِ حِينَ قال (اللهُمَّ إنْ كانَ هَذا هو الحَقَّ مِن عِنْدِكَ فَأمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِن السَّماءِ)، وهَذا مَذْهَبُ الجُمْهُورِ، مِنهُمُ ابْنُ عَبّاسٍ، ومُجاهِدٌ .

(**لِّلْكَافِرِينَ**) أي مرصد معد للكافرين ، لاستحقاقهم ذلك بكفرهم وتمردهم .

(**لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ**) أي : لا دافع له إذا أراد الله كونه ، فلا راد يرده ويمنعه عنهم قبل نزوله ، ولا يرفعه عنهم بعد نزوله كما قال تعالى (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَا لَهُ مِن دَافِعٍ) .

(**مِّنَ اللَّهِ**) أي : هذا العذاب واقع بهم من الله ، فهو الذي يوقعه بهم فلا يستطيعون له دفعاً ولا منعاً .

(**ذِي الْمَعَارِجِ**) المعارج جمع معرج، وهو المصعد، ومنه قوله تعالى (وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً، لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ) .

وقد ذكر المفسرون في المراد بالمعارج وجوها :

منها: أن المراد بها السموات، فعن ابن عباس أنه قال: أي : ذي السموات، وسماها معارج لأن الملائكة يعرجون فيها.

ومنها: أن المراد بها: النعم والمنن. فعن قتادة أنه قال: ذي المعارج، أي : ذي الفواضل والنعم.

ومنها: أن المراد بها الدرجات التي يعطيها لأوليائه في الجنة.

- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (ذي المعارج) فيه قولان :

أحَدُهُما: أنَّها السَّمَواتُ، قالَهُ ابْنُ عَبّاسٍ. وقالَ مُجاهِدٌ: هي مَعارِجُ المِلائِكَةِ.

والثّانِي: أنَّ المِعارِجَ: الفَواضِلُ والنِّعَمُ، قالَهُ قَتادَةُ.

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) أي : تصعد الملائكة الأبرار (الروح) أي جبريل الذي خصه الله بالوحي .

وهذا من باب الخاص بعد العام ، فإن جبريل ملك من الملائكة ، فهو داخل في قوله تعالى (تعرج الملائكة) لكن خص وأعيد ذكره لبيان عظم منزلته وكريم مرتبته .

والمعنى : أي تصعد الملائكة وجبريل عليهم السلام إليه عز وجل بما وكل إليهم من الأمر .

- **قال ابن الجوزي** في "الرُّوحِ" قَوْلانِ :

أحَدُهُما: جِبْرِيلُ، قالَهُ الأكْثَرُونَ.

والثّانِي: رُوحُ المَيِّتِ حِينَ تُقْبَضُ، قالَهُ قَبِيصَةُ بْنُ ذُؤَيْبٍ.

- والملائكة خلق من خلق الله ، خلقهم الله من نور يعبدون الله ويأتمرون بأمره ولا يعصونه كما قال تعالى (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وقال تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) .

- **وقال في التسهيل** : والروح هنا جبريل عليه السلام بدليل قوله (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبك) .

وقيل: الروح ملائكة حفظة على الملائكة، وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقل.

وقيل: الروح جنس أرواح الناس وغيرهم .

- وسمي جبريل بالروح :

١- لأنه روح مقدّسة ، فوصْفُه بذلك تشريف له وبيان لعلو مرتبته .

٢- لأن الدِّين يحيا به كما يحيا البدن بالروح ، فهو المتولي لإنزال الوحي إلى الأنبياء .

- الروح تطلق في القرآن على عدة أوجه :

اولا : القوة والثبات والنصرة .

قال تعالى (أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

ثانياً : بمعنى جبريل :

قال تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) .

ثالثاً : بمعنى الوحي .

قال تعالى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا) .

رابعاً : المسيح عيسى ابن مريم .

قال تعالى (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ) .

(في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) أي في يوم طوله هذه المدة . وقد اختلف في المراد بالآية :

فقيل : هو يوم القيامة .

عن ابن عباس قال : (هو يوم القيامة) .

ويؤيد هذا القول قوله ﷺ (مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّى مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ) رواه مسلم

وقيل : المراد بذلك مسافة بين العرش العظيم إلى أسفل سافلين ، وهو قرار الأرض السابعة وذلك مسافة خمسين ألف سنة .

والراجح الأول .

- **إشكال** : كيف الجمع بين هذه الآية وبين الآية التي في السجدة : (في يوم كان مقداره ألف سنة) ؟

الوجه الأول : إن هذا اليوم يختلف طوله على الكافر عن المؤمن ، فيطوّل هذا اليوم على الكافر ويخفف على المؤمن ، وكلاهما يوم القيامة ، فهو كألف سنة ، وهو خمسون ألف سنة أيضاً .

ومما يؤيد أن هذا اليوم يطول ويشق على الكافر ما يلي :

قوله تعالى (فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ) .

وقوله تعالى (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً) .

وجاء حديث فيه ضعيف رواه الإمام أحمد قال ﷺ : (والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من الصلاة المكتوبة يصليها في الدنيا) .

الوجه الثاني : إن يوم الألف في سورة السجدة هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه ، ويوم الخمسين ألفاً هو يوم القيامة .

الوجه الثالث : أن المراد باليومين في الآيتين يوم واحد ، ويكون العروج فيه إلى الله ، وإنما اختلفت المدة في الآيتين فكانت في إحداهما ألفاً وفي الأخرى خمسين ألفاً لاختلاف المسافة المقطوعة في كل منهما ، فالألف سنة جعلت مدة لنزول الملائكة وصعودهم إلى السماء الدنيا ، فإن المسافة بين الأرض والسماء الدنيا قُدرت في الأحاديث بخمسمائة عام ، فإذا قدر نزولهم وصعودهم كان المجموع ألف سنة ، وأما الخمسون ألفاً فهي المدة التي يعرجون فيها من فوق السبع الطباق من عند العرش إلى أسفل الأرض .

وذهب إلى هذا القول طائفة من السلف ، فقال به مجاهد ، وابن إسحاق .

ورجحه ابن جرير ، والبغوي ، واختاره ابن القيم .

(**فاصبر صبراً جميلاً**) أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم بالعذاب استبعاداً لوقوعه .

كما قال تعالى (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ) .

وقال تعالى (فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ) .

وقال تعالى (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ) .

- والصبر الجميل : هو الصبر الذي لا جزع فيه ولا قلق ، ولا ملل ولا تضجر ، ولا شكوى لغير الله كما قال تعالى (فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ) .

- وإنما أمره الله تعالى بالصبر :

أولاً : لأن بالصبر ينتصر الإنسان كما قال ﷺ (واعلم أن النصر مع الصبر) .

ثانياً : أن الصبر فيه رفع للدرجات وتكفير للسيئات .

ثالثاً : وبالصبر مع اليقين تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

رابعاً : وليكون قدوة لغيره .

(**إنهم يرونه بعيداً**) أي وقوع العذاب ، وقيل : قيام الساعة ، يراه الكفرة بعيد الوقوع بمعنى مستحيل الوقوع .

والأقرب أن المراد قيام الساعة لأنه أقرب مذكور .

والتعبير بالبعيد كناية عن معنى الإحالة ، لأنهم لا يؤمنون بذلك اليوم ولا بالعذاب .

- **قال الشوكاني** : (إنهم يرونه بعيداً) أي : يرون العذاب الواقع بهم ، أو يرون يوم القيامة بعيداً أي : غير كائن لأنهم لا يؤمنون به ، فمعنى (بَعِيداً) أي : مستبعداً محالاً ، وليس المراد أنهم يرونه بعيداً غير قريب.

(**ونراه قريباً**) أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

وقيل : ونحن نراه قريبا، لأنه كائن، وكلّ ما هو آت قريب . (ابن جرير) .

- **قال ابن عاشور** : (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا) تعليل لجملتي (سأل سائل بعذاب واقع) ولِجملة (فاصبر صبراً جميلاً) أي سألوا استهزاء لأنهم يرونه مُحالاً وعليك بالصبر لأنا نعلم تحققهُ ، أي وأنت تثق بأنه قريب ، أي محقق الوقوع ، وأيضاً هو تجهيل لهم إذ اغتروا بما هم فيه من الأمن ومسالمة العرب لهم ومن الحياة الناعمة فرأوا العذاب الموعود بعيداً ، إن كان في الدنيا فلأمنهم، وإن كان في الآخرة فلإنكارهم البعث، والمعنى: وأنت لا تشبه حالهم وذلك يهوّن الصبر عليك فهو من باب (ولا تتبع أهواءَهم) (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبَع هواه) .

الفوائد :

١- أن الكفار دائماً يستعجلون وقوع العذاب ،.

كما قال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون)

وقال تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده) .

وقال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) .

وقال سبحانه : (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) .

وقال سبحانه : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) .

٢-أن عذاب الله واقع لا محالة عنه ولا دافع له .

٣-أنه لا ينبغي الاشتغال بأسماء من يثير الشبهات ، والأفضل أن يبقوا نكرات حتى لا تلتفت الأنظار إليهم .

٤-الاستهزاء بالدين أمر قديم ، لا علاقة له بالداعية .

٥-الأفضل في ذكر الشبهة أن لا تورد مفصلة ، حتى لا تعلق بقلوب العوام .

٦-إثبات علو الله سبحانه وتعالى ، لقوله : (تعرج الملائكة والروح إليه ...) .

٧-طول يوم القيامة وشدة أهواله .

(يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى) .

[المعارج : ٨ – ١٨] .

(**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاء كَالْمُهْلِ**) أي تكون السماء – كالرصاص المذاب –من تشققها وبلوغ الهول منها مبلغ

والمعنى : تشبيه السماء في انحلال أجزائها بالزيت ، وهذا كقوله في سورة الرحمان (فكانت وردة كالدِهان) قاله ابن عاشور .

فائدة :

اختار ابن جرير أن المهل كل ما انماع .

- **قال ابن جرير** : .... فالمهل إذا هو كلّ مائع قد أوقد عليه حتى بلغ غاية حره، أو لم يكن مائعا، فانماع بالوقود عليه، وبلغ أقصى الغاية في شدّة الحرّ.

(**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ**) أي وتكون الجبال متناثرة متطايرة كالصوف المنفوش إذا طيرته الريح .

قال القرطبي : والمعنى : أنها تلين بعد الشدّة ، وتتفرق بعد الاجتماع.

تنبيه :

فسر ابن جرير – رحمه الله – العهن بالصوف .

قال رحمه الله : وقوله: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ) يقول: وتكون الجبال كالصوف .

- **قال السعدي** : فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الشديدة ، فما ظنك بالعبد الضعيف ، الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار ، أليس حقيقاً أن ينخلع قلبه ولبه ، ويذهل عن كل أحد، ولهذا قال :

(**وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً**) أي لا يسأل القريب قريبة عن حاله وهو يراه في أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ) .

- **قال الشوكاني** : أي لا يسأل قريب قريبه عن شأنه في ذلك اليوم لما نزل بهم من شدّة الأهوال التي أذهلت القريب عن قريبه، والخليل عن خليله ، كما قال سبحانه (لِكُلّ امرئ مّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

(**يُبَصَّرُونَهُمْ**) أي : يرونهم ويعرفونهم ، حتى يرى الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته فلا يسأله ولا يكلمه .

قال ابن عباس : يعرف بعضهم بعضاً ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض .

وقيل : إن قوله (يُبَصَّرُونَهُمْ) يرجع إلى الملائكة أي : يعرفون أحوال الناس لا يخفون عليهم .

وقيل : إن الله سبحانه يبّصر الكفار بالذين أضلوهم في الحياة الدنيا من الرؤساء وأئمة الكفر ، فيعرفونهم ثم يفر كل منهم من الآخر ويلعن كل منهم الآخر .

وقيل : أن الكفار يرون المؤمنين ويعرفونهم ، وينظرون إلى ماهم فيه من النعيم ، فيزدادون حسرة إلى حسرتهم ونكداً إلى ما هم فيه من النكد .

ورجح الطبري الأول وقال : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال : معنى ذلك : ولا يسأل حميم حميماً عن شأنه ،

ولكنهم يبصرونهم فيعرفونهم ثم يفر بعضهم من بعض كما قال جل ثناؤه (يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ...) .

(**يَوَدُّ الْمُجْرِمُ**) أي : يتمنى المجرم الذي حق عليه العذاب .

- **قال ابن عطية** (المجرم) في هذه الآية الكافر بدليل شدة الوعد وذكر (لظى) وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الافتداء .

(**لَوْ يَفْتَدِي**) أي : لو يتخلص وينجو .

(**مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ**) أي يتمنى الكافر لو يفدي نفسه من عذاب الله ، بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن وزوجة وأخ (وصاحبته) أي زوجته .

– وخص الأبناء بالذكر دون البنات ، لأنهم أغلى ما يملك ، ويعدون للدفع والمنع في الدنيا غالباً .

(**وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ**) أي : وفصيلته وعشيرته التي كانت تضمه إليها ، ويتكل في نوائبه عليها .

(**ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه**) أي ويجمع من في الأرض من البشر وغيرهم ثم ينجو من عذاب الله .

يعني تمنى لو كان هؤلاء جميعاً تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثم ينجيه ذلك ، وهيهات أن ينجيه .

ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحداً ، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله .

(**كَلَّا**) ردعٌ للمجرمِ عن الودادةِ وتصريحٌ بامتناعِ إنجاءِ الافتداءِ .

أي : لا يقبل فيه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ولو بملء الأرض ذهباً ، ولا قرابة تنفع ، بل أمامه جهنم .

(**إِنَّهَا لَظَى**) تتلظى نيرانها وتلتهب ، ولظى علم لجهنم ، واشتقاقها من التلظي في النار ، وهو التلهب.

ولظى: اسم من أسماء جهنم .

أسماء النار :

الاسم الأول : الهاوية .

وقد ورَدتْ هذه الكلمة في القرآن الكريم مرة؛ وذلك في قوله تعالى :﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ *فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ *نَارٌ حَامِية) .

قال العلَّامة القرطبي رحمه الله تعالى في وجه تسميتها: "وَسُمِّيَتِ النَّارُ هَاوِيَةً، لِأَنَّهُ يُهْوَى فِيهَا مَعَ بُعْدِ قَعْرِهَا .

الاسم الثاني : لظى .

كما في هذه الآية (**كَلَّا إِنَّهَا لَظَى**) .

سميت بذلك لأنها أشد النيران .

الاسم الثالث : الحطمة .

وقد ورَدتْ هذه الكلمة في القرآن مرتين؛ وذلك في قوله تعالى:

(كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ *نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ *الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدة) .

سميت بذلك لحطمها ما يلقى فيها .

الاسم الرابع : الجحيم .

قال تعالى (أَمَّا مَنْ طَغَى *وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا *فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) .

سميت بذلك لجحيم حرها .

الاسم الخامس : جهنم .

قال تعالى (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً) .

سميت بذلك لبعد قعرها .

الاسم السادس : سقر .

قال تعالى (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ *لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ *لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ) .

سميت بذلك لأنها تذيب الأرواح والأجساد .

الاسم السابع : السعير .

قال تعالى (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ *فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا *وَيَصْلَى سَعِيرًا *إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً) .

سميت بذلك لاشتعال واتقاد وارتفاع لهب نارها .

(**نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى**) اختلف العلماء في المراد بها :

فقيل : أن الشوى الأطراف ، كاليدين والرجلين ، نزعها عن أماكنها .

وقيل : جلدة الرأس .

وابن جرير جمع بين القولين فقال : قوله (نزاعَةً لِلشَّوَى) يقول تعالى ذكره مخبرا عن لظَى: إنها تنزع جلدة الرأس وأطراف البدن، والشَّوَى: جمع شواة، وهي من جوارح الإنسان ما لم يكن مقتلاً .

(**تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى**) أي تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة ، وهم من أدبر عن طاعة الله وأعرض وتولى عن الإيمان عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

قال تعالى (إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً) وقال تعالى (إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ) .

- **قال ابن عاشور** : والإدبار : ترك شيء في جهة الوراء لأن الدّبر هو الظهر ، فأدبر : جعل شيئاً وراءه بأن لا يعرج عليه أصلاً أو بأن يقبل عليه ثم يفارقه ، والتولّي : الإدبار عن شيء والبعد عنه

وهذا القول هو الصحيح أن الذي تدعو هي النار .

- **قال الحسن البصري** : يا ابن آدم سمعت وعيد الله ثم أوعيت الدنيا ، فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها ‘‘ .

وقيل : إن معنى (تدعو) تهلك ، تقول العرب : دعاك الله ؛ أي أهلكك الله.

وقيل : الداعي خزنة جهنم ؛ أضيف دعاؤهم إليها.

وقيل : هو ضرب مَثَل ؛ أي إن مصير من أدبر وتولّى إليها ؛ فكأنها الداعية لهم.

(**وَجَمَعَ فَأَوْعَى**) أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه وجعله في أوعية وصناديق فلم ينفق منه ما ينفعه ويدفع عنه النار .

- فجمع بين الإدبار والتكذيب بقلبه ، والتولي عن العمل بجوارحه والانكباب على الدنيا وجعلها أكبر همه .

- **قال القرطبي** : أي جمع المال فجعله في وعائه ومنع منه حق الله تعالى ؛ فكان جَموعاً منوعاً.

- وعن قتادة (جمع فأوعى) كان جَمُوعاً للخبيث ، وهذا تفسير حسن ، أي بأن يُقدَّر ل (جمع) مفعول يدل عليه السياق ، أي وزاد على إدباره وتوليه أنه جمع الخبائث ، وعليه يكون (فأوعى) مستعاراً لملازمته مَا فيه من خصال الخبائث واستمراره عليها فكأنها مختزنَة لا يفرط فيها. [قاله ابن عاشور] .

- **قال ابن عاشور** : والوعاء : الظرف ، أي جمع المال فكنزه ولم ينفع به المحَاويج ، ومنه جاء فعل { أوعى } إذا شحّ.

وفي الحديث (ولا تُوعي فيُوعَى عليك) وفي قوله (جَمَع) إشارة إلى الحرص ، وفي قوله (فأوعى) إشارة إلى طول الأمل.

- والمال وكثرته سبب للطغيان والافتتان :

قال تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى . أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) .

وقال تعالى (أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً) .

وقد قال ﷺ (لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال) رواه الترمذي .

والمال يكون مذموماً : إذا كان من حرام أو شبهات ، أو كان من حلال وأشغل عن طاعة الله ومرضاته .

ولذلك سليمان عليه الصلاة والسلام لما أعطاه الملك والغنى قال (قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) .

قال الحكم : كان عبد الله بن عُكَيم لا يربط كيسه ويقول سمعت الله يقول : وَجَمَعَ فأوعى .

الفوائد :

١-وجوب الصبر على البلاء ، فلا تسخط ولا تجزع .

٢-أنه في يوم القيامة لا ينفع لا قريب ولا صديق ولا أحد ، قال تعالى : (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون) .

وقال تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذٍ شأن يغنيه) .

وقال تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) .

٣-شدة عذاب النار .

٤-أن من أسباب دخول النار : الإدبار عن طاعة الله والتولي عنها ـ وجمع المال وعدم إنفاق الواجب منه.

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ) .

[المعارج : ١٩ – ٣٥] .

(**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً**) يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة (إن الإنسان خلق هلوعاً) أي أن الإنسان جبل على الضجر، ولا يصبر على بلاء ، ولا يشكر على نعماء.

قوله (هَلُوعاً) صيغة مبالغة من الهلع، وهو إفراط النفس، وخروجها عن التوسط والاعتدال، عند ما ينزل بها ما يضرها، أو عند ما تنال ما يسرها.

قال أبو عبيدة : الهلوع هو الذي إذا مسه الخير لم يشكر ، وإذا مسه الشر لم يصبر .

فالمراد بالإنسان : جنس الإنسان لاَ فرد معيّن كقوله تعالى (إن الإنسان ليطْغَى أن رآه استغنى) وقوله (خلق الإنسان من عَجَل) ، ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

- **قال الآلوسي** : قوله (إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً) الهلع: سرعة الجزع عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم: ناقة هلوع، أي: سريعة السير.

وسئل ابن عباس عن الهلوع فقال: هو كما قال الله- تعالى-: إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً.

ولا تفسير أبين من تفسيره سبحانه .

- **اختلف في المراد بالإنسان** ، **قيل** : المراد بالإنسان الكافر ، **وقيل** : عموم الإنسان وهذا هو الصحيح بدليل الاستثناء .

- ثم فسر هذا الهلوع :

(**إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً**) أي إذا مسه الضر (مرض أو فقر أو موت محبوب أو هلاك مال) فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، ولا يستعمل ذلك الصبر والرضى بما قضى الله ، بل ربما حمله ذلك على فعل ما لا تحمد عقباه من لطم الخدود وشق الجيوب .

(**وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً**) أي : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها عن غيره ، ومنع حق الله تعالى فيها .

كما قال تعالى (قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإنسَانُ قَتُوراً) .

وقال تعالى عن قارون أنه قال (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي) .

وحديث الأعمى والأقرع والأبرص حينما ابتلاهم الله وأرسلهم الملك ليختبرهم وأعطاهم ما يتمنون ، فالأبرص قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، وكذلك قال الأقرع .

وقد جاء عند الإمام أحمد عن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : (شر ما في رجل : شح هالع ، وجبن خالع) .

-جاء في (**التفسير الوسيط**) التعبير بقوله: خُلِقَ هَلُوعاً يشير إلى أن جنس الإنسان- إلا من عصم الله- مفطور ومطبوع، على أنه إذا أصابه الشر جزع، وإذا مسه الخير بخل.. وأن هاتين الصفتين ليستا من الصفات التي يحبها الله- تعالى- بدليل أنه- سبحانه- قد استثنى المصلين وغيرهم من التلبس بهاتين الصفتين.

وبدليل أن من صفات المؤمن الصادق أن يكون شكورا عند الرخاء صبورا عند الضراء.

وفي الحديث الشريف، يقول ﷺ : شر ما في الرجل: شح هالع، وجبن خالع ، وفي حديث آخر يقول ﷺ عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له . انتهى .

(**إِلَّا الْمُصَلِّينَ**) أي : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم ، إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه وهم المصلون ، لأنهم بتوفيق الله لهم يصبرون عند الضراء ويشكرون عند السراء ، لأنهم يأوون إلى ركن شديد وحصن منيع وهو إيمانهم بالله عز وجل وتوكلهم عليه ، ومن توكل على الله كفاه .

(**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**) أي : إن الناس جميعاً قد جبلوا على الجزع عند الضراء، وعلى المنع عند السراء.. إلا المصلين منهم، الذين يواظبون على أدائها مواظبة تامة، دون أن يشغلهم عن أدائها: عسر أو يسر، أو غنى أو فقر، أو إقامة أو سفر.

فهم ممن قال تعالى في شأنهم (رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ، يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصارُ) .

وقال تعالى (عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) للإشارة إلى أنهم لا يشغلهم عنها شاغل، إذ الدوام على الشيء عدم تركه.

- **قال في التسهيل** : الدوام عليها هو المواظبة بطول العمر .

- **قال ابن عاشور** : والدوام على الشيء : عدم تركه ، وذلك في كل عمل بحسب ما يعتبر دواماً فيه .

وقيل : المراد بالدوام هنا السكون والخشوع، كقوله تعالى : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون) ومنه الداء الدائم

وهو الساكن الراكد ، ولا مانع من القولين .

– فهذه الصلاة هي التي تنفع صاحبها فتنهاه عن الفحشاء والمنكر كما قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) فلا يجزع صاحبها عند المصيبة ولا يمنع ما آتاه الله من خير .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه كما جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل)

(**وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ**) أي وفي أموالهم نصيب مقدر لذوي الحاجات ، وهو الزكاة .

- **قال ابن جرير** : يقول تعالى : وإلا الذين في أموالهم حقّ مؤقت، وهو الزكاة . (التفسير)

ويدل لذلك أمران :

الأول : وصفه بأنه (حق) وبأنه (معلوم) والحق المعلوم هو الزكاة .

الثاني : أنه قرنه بالصلاة، والغالب في القرآن أن يقرن بين الصلاة والزكاة كما قال تعالى (يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) .

- **قال ابن عاشور** : وتسمية ما يعطونه من أموالهم من الصدقات باسم (حق) للإشارة إلى أنهم جعلوا السائل والمحروم كالشركاء لهم في أموالهم من فرط رغبتهم في مواساة إخوانهم إذ لم تكن الصدقة يومئذٍ واجبة ولم تكن الزكاة قد فرضت.

(**لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**) السائل الذي يبتدئ السؤال ، وأما المحروم فاختلف العلماء في المراد به :

فقيل : هو الذي لا يسأل الناس شيئاً . (المتعفف) .

وقيل : هو الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بآفة أو نحوها ، واختاره ابن جرير .

(**الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ**) أي : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب .

– ويوم الدين هو يوم الجزاء كما قال تعالى (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) وقال تعالى (يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ... وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ...) وقال تعالى (وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ) .

(**وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ**) أي : أن من صفاتهم: أنهم مع قوة إيمانهم، وكثرة أعمالهم الصالحة، لا يجزمون بنجاتهم من عذاب الله– تعالى– وإنما دائما أحوالهم مبنية على الخوف والرجاء، إذ الإشفاق توقع حصول المكروه وأخذ الحذر منه.

– وهكذا المؤمن يعمل ويخاف .

قال تعالى (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) قالت عائشة : يا رسول الله ! أهم الذين يربون الخمر يزنون ويسرقون ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك يسارعون في الخيرات) رواه الترمذي .

–**قال ابن القيم** : والله سبحانه وصف أهل السعادة بالإحسان مع الخوف ووصف الأشقياء بالإساءة مع الأمن . قال تعالى (وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ) .

ثم قال : ومن تأمل أحوال الصحابة وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف ، ونحن جمعنا بين التقصير – بل التفريط – والأمن ، فهذا الصديق يقول : وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن .

وذكر عنه أنه كان يمسك لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد .

وكان يبكي كثيراً ويقول : ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل .

وهذا عمر قرأ سورة الطور حتى بلغ (إن عذاب ربك لواقع) بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه .

وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء .

وهذا عثمان كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته .

وهذا علي اشتد بكاؤه وخوفه من اثنتين : طول الأمل واتباع الهوى .

وكان عبد الله بن عباس أسفل عينيه مثل الشّراك البالي من الدموع .

وكان أبو ذر يقول : يا ليتني كنت شجرة تعضد وددت أني لم أخلق .

وقال ابن أبي مليْكة : أدركت ثلاثين من اصحاب النبي ﷺ كلهم خاف على نفسه النفاق ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

وقال الحسن : ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق .

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذباً .

(**إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**) أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى .

جاء في (**التفسير الوسيط**) جملة (إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) تعليلية، ومقررة لمضمون ما قبلها، أي : إنهم مشفقون من عذاب ربهم.. لأن العاقل لا يأمن عذابه- عز وجل- مهما أتى من طاعات، وقدم من أعمال صالحة.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلى رَبِّهِمْ راجِعُون) .

(**وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ**) أي يكفونها عن الحرام ، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، كالزنا ، واللواط ، أو إتيان الزوجات في الدبر ، أو أثناء الحيض .

وحفظ الفرج يكون بأمرين :

الأول : يمنعه من الزنا .

كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) .

ثانياً : وتارة بحفظه من الانكشاف أمام الناس .

كما قال ﷺ : (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك) .

ومن حفظ الفرج فعل الاسباب التي تؤدي إلى حفظه والابتعاد عن الأسباب التي تؤدي إلى عدم حفظه ، وأهمها : النظر المحرم كما قال تعالى (لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُون) قدم غض البصر على حفظ الفرج ، لأن غض البصر وسيلة إلى حفظ الفرج ، وإطلاق البصر سبب لعدم حفظ الفرج .

- قال ابن القيم رحمه الله مبيناً فوائد غض البصر :

تخليص القلب من ألم الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضر شيء على القلب إرسال البصر

كلُّ الحوادثِ مَبْدَاهَا من النظر   ومُعْظَمُ النار من مُسْتصْغَرِ الشرر

أنه يورث القلب نوراً وإشراقاً يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح ، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه ، ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى : (الله نور السموات والأرض) عقيب قوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) .

أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور وثمراته ، وإذا استنار القلب صحّت الفراسة لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها

المعلومات كما هي .

أنه يفتح طرق العلم وأبوابه ، ويسهل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب .

أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة .

وفي الأثر : (إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله) ، ولهذا يوجد في المتبع لهواه من ذل القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله لمن آثر هواه على هواه .

أنه يورث القلب سروراً وفرحة وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر ، وذلك لقهره عدوه بمخالفته ، ومخالفة نفسه وهواه .

أنه يخلص القلب من أسر الشهوة ، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه ، فهو كما قيل: (طليق برأي العين وهو أسير).

أنه يسد عنه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل ، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول .

أن يقوي عقله ويزيده ويثبته ، فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفت العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب .

أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة ، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ، ويوقع في سكرة العشق ، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) .

(**إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ**) أي : يقتصـرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقيقات المملوكات .

(**فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ**) أي فإنهم غير مؤاخذين ، لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات حلال يؤجر عليه الإنسان لما فيه من تكثير النسل والذرية .

(**فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ**) أي : فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات .

(**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**) فقد تعدى الله وعرّض نفسه لعذاب الله .

- **قال الطبري** : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ففاعلو ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملومون .

فائدة :

استدل بهذه الآية من قال بتحريم الاستمناء .

وهذه العادة قديمة معروفة في الجاهلية قبل الإسلام، فقد كانوا يجلدون عُمَيْرَة إذا خلوا بواد لا أنيس به .

كما قال الشاعر :

إذا ما خلوتَ بوادٍ لا أنيسَ به   فاجْلدْ عُمَيْرَةَ لا عيبٌ ولا حرجُ

وعميرة كناية عن الذكر .

ومعنى الاستمناء : هو استدعاء خروج المني بغير جماع ، سواء كان باليد أو بغيرها .

وقد اختلف العلماء في حكمه :

القول الأول : أنه حرام .

وهذا مذهب جماهير العلماء .

أ–لقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُون) .

فأوجب الله على المسلم أن يحفظ فرجه إلا من زوجته أو ما ملكت يمينه ، فإذا تجاوز زوجته وملك يمينه إلى غيرهما فإنه من العادين .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : وقد استدل الإمام الشافعي ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية

ب–ولحديث ابن مسعود قال : قال ﷺ (يَا مَعْشَرَ اَلشَّبَابِ ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ اَلْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ , فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ , وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ , وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ ; فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ) مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

فالرسول ﷺ أمر بالصيام ، ولو كان الاستمناء جائزاً لأرشد إليه النبي ﷺ .

ج–ومن الأدلة : أن الله سبحانه وتعالى أباح للصحابة المتعة في أول الأمر ، ثم نسخت بعد ، وسبب إباحتها ما لقوه من شدة العزوبة في أسفارهم ، وقد جعلها الله حلاً مؤقتاً لدفع حاجتهم ، ولو كان الاستمناء مباحاً لبينه لهم ، وهو أيسر وأقل مؤونة وأثراً .

وسئل ابن تيمية رحمه الله تعالى عن الاستمناء هل هو حرام أم لا ؟

فأجاب: أما الاستمناء باليد فهو حرام عند جمهور العلماء وهو أصح القولين في مذهب أحمد ، وكذلك يعزر مَن فعله وفي القول الآخر هو مكروه غير محرم ، وأكثرهم لا يبيحونه لخوف العنت ولا غيره ، ونقل عن طائفة من الصحابة والتابعين أنهم رخَّصوا فيه للضرورة مثل أن يخشى الزنا فلا يعصم منه إلا به ، ومثل أنْ يخاف إن لم يفعله أن يمرض وهذا قول أحمد وغيره وأما بدون الضرورة فما علمتُ أحداً رخَّص فيه .

- **وقال الشنقيطي** : اعْلَمْ أَنَّهُ لَا شَكَّ فِي أَنَّ آيَةَ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ هَذِهِ الَّتِي هِيَ (فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ) تَدُلُّ بِعُمُومِهَا عَلَى مَنْعِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ .

لِأَنَّ مَنْ تَلَذَّذَ بِيَدِهِ حَتَّى أَنْزَلَ مَنِيَّهُ بِذَلِكَ ، قَدِ ابْتَغَى وَرَاءَ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ ، فَهُوَ مِنَ الْعَادِينَ بِنَصِّ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْمَذْكُورَةِ هُنَا ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَنَّ الشَّافِعِيَّ وَمَنْ تَبِعَهُ اسْتَدَلُّوا بِهَذِهِ الْآيَةِ ، عَلَى مَنْعِ الِاسْتِمْنَاءِ بِالْيَدِ ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : سَمِعْتُ حَرْمَلَةَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، قَالَ : سَأَلْتُ مَالِكًا عَنِ الرَّجُلِ يَجْلِدُ عَمِيرَةَ فَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَى قَوْلِهِ الْعَادُونَ) .

قَالَ مُقَيِّدُهُ – عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ – : الَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ اسْتِدْلَالَ مَالِكٍ ، وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، عَلَى مَنْعِ جَلْدِ عَمِيرَةَ الَّذِي هُوَ الِاسْتِمْنَاءُ بِالْيَدِ اسْتِدْلَالٌ صَحِيحٌ بِكِتَابِ اللَّهِ ، يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَرِدْ شَيْءٌ يُعَارِضُهُ مِنْ كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . (أضواء البيان) .

وقال الشيخ الألباني : وأما نحن فنرى أن الحق مع الذين حرموه مستدلين بقوله تعالى (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُون) ولا نقول بجوازه لمن خاف الوقوع في الزنا، إلا إذا استعمل الطب النبوي وهو قوله ﷺ للشباب في الحديث المعروف الآمر لهم بالزواج (فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) ولذلك فإننا ننكر أشد الإنكار على الذين يفتون الشباب بجوازه خشية الزنى، دون أن يأمروهم بهذا الطب النبوي الكريم .

القول الثاني : أنه مباح .

وهو قول لبعض أهل الظاهر .

لعدم الدليل المانع ، حيث لم يثبت دليل على المنع .

وهو قول ابن حزم .

والراجح القول الأول .

لكن يباح الاستمناء في حالتين :

الحالة الأولى : خوف الوقوع بالزنا .

الحالة الثانية : التضرر بحبس هذا الماء .

(**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**) الأمانات جمع أمانة وهي كل ما ائتمن عليه الإنسان مما بينه وبين ربه من التكاليف الشرعية وغيرها ، ومما بينه وبين الخلق من الأموال والأعمال والأسرار وغير ذلك .

والمعنى : والذين يراعون الأمانات فيؤدونها إلى أهلها امتثالاً لقوله الله تعالى (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا) وفي الحديث (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك) .

– ويرعون العهود ، وهي المواثيق والعقود التي بينهم وبين الله ، والتي بينهم وبين الخلق ، فيؤدون حقوق الله ، ويؤدون حقوق العباد .

كما قال تعالى (وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً) .

وقال تعالى (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ) .

- **قال السعدي** : فإن العهد يسأل عنه العبد : هل قام به أم رفضه وخانه فلم يقم به .

– وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين .

كما ورد في الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

وجاء في الحديث : عن عِمْرَانَ بْن حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قَالَ عِمْرَانُ : فَلا أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثَةً – ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يُوفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَن) متفق عليه .

- **قال النووي** : (**وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ**) وَمَعْنَاهُ يَخُونُونَ خِيَانَة ظَاهِرَة بِحَيْثُ لَا يَبْقَى مَعَهَا أَمَانَة، بِخِلَافِ مَنْ خَانَ بِحَقِيرٍ مَرَّة وَاحِدَة؛ فَإِنَّهُ يَصْدُق عَلَيْهِ أَنَّهُ خَانَ، وَلَا يَخْرُج بِهِ عَنْ الْأَمَانَة فِي بَعْض الْمَوَاطِن.

(**وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ**) أي محافظون عليها ، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، فيؤدونها كما تحملوها على أنفسهم على غاية التمام وحسن الأداء ، وعلى القريب والبعيد ، وعلى العدو والصديق ، لهم وعليهم .

كما قال تعالى (وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ)

وقال تعالى (وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا) .

وقال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللّهِ) .

فأداء الشهادة – على من تحملها – عند القاضي فرض عين .

أ–لقوله تعالى (ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ) ، [وإنما خص القلب بالإثم لأنه موضع العلم بها] .

ب–ولأن الشهادة أمانة فلزم أداؤها كسائر الأمانات .

ج–ولأن امتناعه من أداء الأمانة التي تحملها قد يكون سبباً في ضياع الحقوق .

(**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها . [قاله ابن كثير] .

– ومما يدل على اهتمامها :

أولاً : أنها أول ما فرضت فرضت خمسين صلاة .

ثانياً : أنها فرضت في أعلى مكان .

ثالثاً : أنها عمود الإسلام .
- مدح الله هنا المحافظين على الصلاة ، وأمر بالمحافظة عليها في موضع آخر فقال (حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى) وقال ﷺ (من حافظ عليها ، كان له عند عهد أن يُدخله الجنة) وفي حديث آخر (من حافظ عليهن كنّ له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة) .
- ومما أمرنا بالمحافظة عليها الوضوء ، قال ﷺ (لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) .
- وكذلك الأيْمان كما قال تعالى (وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ) .
- ومن أعظم ذلك اللسان والفرج : قال ﷺ (من حفظ ما بين لحييه وما بين رجليه دخل الجنة) .
- وكذلك حفظ الفروج ، فقد أثنى عليهم الله كما هنا ، وأمر بذلك بقوله (قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) وقال تعالى (والْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً) . قال أبو إدريس الخولاني : أول ما أوصى الله به آدم عند إهباطه إلى الأرض : حفظ فرجه ، وقال : لا تضعه إلا في حلال .
- قال القرطبي : ذكر تعالى من أوصافهم في البدء (**الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ**) ثم قال في الختم (**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**) والدوام غير المحافظة ، فدوامهم عليها أن يحافظوا على أدائها ، لا يخلون بها ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ، ويقيموا أركانها ، ويكملوا بسننها وآدابها ويحفظونها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى نفس الصلوات ، والمحافظة ترجع إلى أحوالها .
- قال الرازي : فإن قيل : قال : {على صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ} ثم : {على صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج : ٣٤] قلنا : معنى دوامهم عليها أن لا يتركوها في شيء من الأوقات ومحافظتهم عليها ترجع إلى الاهتمام بحالها حتى يؤتى بها على أكمل الوجوه ، وهذا الاهتمام إنما يحصل تارة بأمور سابقة على الصلاة وتارة بأمور لاحقة بها ، وتارة بأمور متراخية عنها .
قال ابن عاشور : وبذلك تعلم أن هذه الجملة ليست مجرد تأكيد لجملة { الذين هم على صلاتهم دائمون } بل فيها زيادة معنى مع حصول الغرض من التأكيد بإعادة ما يفيد عنايتهم بالصلاة في كلتا الجملتين.
(**أُوْلَئِكَ**) أي : الموصوفين بتلك الصفات .
(**فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ**) أي : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار من النعيم الحسي والمعنوي ، ونكّر جنات تعظيماً لها .
الفوائد :
١- بيان شرّ صفات الإنسان، وهو الهلع .
٢- بيان علاج الهلع ، وهو المحافظة على الصلاة وما بعدها من الصفات .
٣- المتحررون من ربقة الهلع قلة .
٤- فضل الخوف من الله ومن عذابه .
كما قال تعالى : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) .
وقال تعالى : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) . [انظر فضائل الخوف في سورة النازعات]
٥- تحريم الاستمناء ، لقوله تعالى : (... فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) .
وقد ذهب جمهور العلماء إلى تحريمه .
فقد احتج الإمام الشافعي بهذه الآية على تحريم الاستمناء .
٦- وجوب أداء الشهادة كما هي من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان .

كما قال تعالى : (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) .

٧- الحرص على تطبيق هذه الصفات ، فمن طبقها وواظب عليها كان من أهل الجنة .

(فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ) .

[المعارج : ٣٦ – ٤٤] .

(**فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ**) يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم هم مع هذا كله فارون منه متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً وشيعاً شيعاً ، فقال سبحانه (فمال الذين كفروا قبلك مهطعين) أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مهطعين ، أي مسرعين نافرين منك .

وقيل المعنى : ما بالهم يُسرعون إليك ويجلسون حواليك ولا يعملون بما تأمرهم.

وقيل : أي ما بالهم مسرعين في التكذيب لك.

وقيل : أي ما بال الذين كفروا يُسْرِعون إلى السماع منك ليعيبوك ويستهزئوا بك.

(**عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ**) واحدها عزة ، أي متفرقين ، أي في حال تفرقهم واختلافهم .

- **قال ابن عاشور** : والمقصود من ذكر اليمين والشمال : الإحاطة بالجهات فاكتفي بذكر اليمين والشمال ، لأنهما الجهتان اللتان يغلب حلولهما .

(**أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ**) أي : أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم .

- **قال القرطبي** : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبيّ ﷺ ويستمعون كلامه فيكذّبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنّها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه .

(**كلا**) بل مأواهم جهنم .

ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب فيهم الذي أنكروا كونه واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداءة التي الإعادة أهون منها، فقال سبحانه وتعالى :

(**إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ**) أي من المني الضعيف ، كما قال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) وقال سبحانه : (فلينظر الإنسان مما خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب) .

- **قال القرطبي** : (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ) أي : إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم ، فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تُستوجَب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى ، وقيل : كانوا يستهزئون بفقراء المسلمين ويتكبّرون عليهم.

فقال : { إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ } من القَذَر ، فلا يليق بهم هذا التكبر.
وقال قتادة في هذه الآية : إنما خُلِقْتَ يا ابن آدم من قذر فاتّق الله.

- **قال ابن عاشور** : وعُدِل عن أن يقال : إنا خلقناهم من نطفة ، كما قال في آيات أخرى (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) وقال (أو لم يرَ الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) وغيرها من آيات كثيرة ، عدل عن ذلك إلى الموصول في قوله (مما يعلمون) توجيهاً للتهكم بهم إذ جادلوا وعاندوا ، وعِلْمُ ما جادلوا فيه قائم بأنفسهم وهم لا يشعرون ، ومنه قوله تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذَّكَّرون) .

(**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ**) أي الذي خلق السموات والأرض وجعل مشرقاً ومغرباً وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها ، وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع لا محالة .

(**إِنَّا لَقَادِرُونَ . عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْهُمْ**) في المراد بالتبديل قولان :

قيل : أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، ورجحه ابن كثير .

كقوله تعالى : (نحن قدرنا بينكم الموتى وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون) .

وقيل : نبدل خيراً منهم أمة تطيعنا ولا تعصينا ، ورجح هذا القول ابن جرير .

كقوله تعالى : (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) .

- **قال القرطبي** : نقدر على إهلاكهم والذهاب بهم ، والمجيء بخير منهم في الفضل والطوع والمال .

- وعلى هذا : ويكون هذا تهديداً لهم بأنْ سيستأصلهم ويأتيَ بقوم آخرين .

كما قال تعالى (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) .

وقوله (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم)

وفي هذا تثبيت للنبيء ﷺ وتذكير بأن الله عالم بحالهم.

(**وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ**) أي بعاجزين .

- **قال السعدي** : أي ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده .

(**فَذَرْهُمْ**) أي يا محمد .

(**يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا**) أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى الأمر بالترك في قوله (فذرهم) أنه أمر بترك ما أهمّ النبي ﷺ من عنادهم وإصرارهم على الكفر مع وضوح الحجج على إثبات البعث .

- والخوض : الكلام الكثير ، والمراد خوضهم في القرآن وشأن النبي ﷺ والمسلمين .

(**حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**) أي حتى يلاقوا ذلك اليوم العصيب الرهيب ، فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ، ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم .

- **قال القرطبي** : أي اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ، على جهة الوعيد ، واشتغل أنت بما أُمِرت به ولا يعظمنّ عليك شركهم ، فإن لهم يوماً يَلقون فيه ما وُعِدوا.

(**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ**) أي يوم يخرجون ويوقفون من القبور .

(**سِرَاعاً**) أي ينهضون مسرعين مجيبين لدعوة الداعي .

(**كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**) أي : كأنهم إلى علم يؤمون ويقصدون ، فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعي .

- **قال ابن جرير** : كأنهم إلى عَلَم قد نُصب لهم يستبقون .

وقيل : كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه ، يوفضون يبتدرون أيهم يستلمه أول .

- **قال ابن عاشور** : أي كأنهم ذاهبون إلى صنم ، شُبه إسراعهم يوم القيامة إلى الحشر بإسراعهم في الدنيا إلى الأصنام لزيارتها لأن لهذا الإسراع اختصاصاً بهم ، وفي هذا التشبيه إدماج لتفظيع حالهم في عبادة الأصنام وإيماء إلى أن إسراعهم يوم القيامة إسراع دعَ ، ودفع جزاء على إسراعهم للأصنام.

(**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**) أي خاضعة منكسرة .

- وصفتْ أبصارُهُم بالخشوعِ معَ أنه وصفُ الكلِّ لغايةِ ظهورِ آثارِهِ فيها

(**تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ**) أي يغشاهم الذل والهوان من كل مكان ، في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة .

(**ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**) أي : هذا اليوم الذي وعدوا به في الدنيا وكانوا يهزءون ويكذبون ، فاليوم يرون عقابهم وجزاهم .

الفوائـد :

١- بيان الحال التي كان عليها الرسول ﷺ في مكة بين ظهراني قريش ، وما كان يلاقي من أذاهم .

٢- أن الجنة تُدخل بالطهارة من الشرك والمعاصي .

٣- أن المشرك لا يدخل الجنة .

٤- أن الإنسان مخلوق من المني القذر لا فرق بينهم ، والفرق بينهم بالإيمان والعمل الصالح .

٥- تقرير عقيدة البعث والجزاء .

٦- أن الله عز وجل غني عن العالمين .

٧- تهديد الكفار في عذاب الله يوم القيامة .

٨- الذل والصغار والهوان سينزل بالكفار يوم القيامة .

قال تعالى : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة نوح

مقدمة :

وهي سورة مكية .

أسماؤها :

بهذا الاسم سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير ، وترجمها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) بترجمة (سورة إنا أرسلنا نوحاً) . ولعل ذلك كان الشائع في كلام السلف ولم يترجم لها الترمذي في (جامعه) .

وهي مكية بالاتفاق . [قاله ابن عاشور] .

أغراضها :

١- قد تناولت السورة تفصيلا قصة شيخ الأنبياء (نوح عليه السلام) من بدء دعوته حتى نهاية (حادثة الطوفان) التي أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت " سورة نوح " ، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتى العصور والأزمان . [صفوة التفسير للصابوني] .

٢- أعظم مقاصد السورة ضرب المثل للمشركين بقوم نوح وهم أول المشركين الذين سلط عليهم عقاب في الدنيا ، وهو أعظم عقاب أعني الطوفان . وفي ذلك تمثيل لحال النبي ﷺ مع قومه بحالهم . [قاله ابن عاشور] .

(إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

[نوح : ١- ٤] .

(**إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ**) يقول تعالى مخبراً عن نوح أنه أرسله إلى قومه .

- **قال السعدي** : لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك .

- فضائل نوح عليه السلام ؟

أولاً : أنه أول رسول للبشر .

كما قال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) وفي حديث الشفاعة الطويل (يقول الناس يا نوح ! أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض ...) متفق عليه .

ثانياً : أن الله أثنى عليه .

فقال تعالى (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

ثالثاً : أحد أولي العزم من الرسل المذكورين في آيتي الشورى والأحزاب .

قال تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً) .

رابعاً : استجاب الله دعاءه ونجاه من الكرب العظيم وجعل ذريته هم الباقين .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ . وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) .

- وكان بين آدم إلى زمان نوح عليهما السلام عشرة قرون ، كلهم على الإسلام

- قوله تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا) ضمير الجمع للتعظيم والتفخيم .

- والحكمة من ذكر قصص الأنبياء على نبيه ﷺ .

أولاً : التسلية له عليه الصلاة والسلام ، وبيان أن الشدة التي لا قاها من قومه قد لاقاها إخوانه من الأنبياء قبله ، كما قال تعالى (مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)

ثانياً : أن في ذلك تهديداً للمكذبين المشركين ، لأنه يهددهم بأنه سينزل بهم ما نزل بإخوانهم الكفار الأولين

ثالثاً : التنبيه على أنه تعالى وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه.

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه ﷺ، لأنه ﷺ كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً، فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله، وذلك يدل على صحت نبوته.

(**أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) أي : بأن خوف قومك وحذرهم إن لم يؤمنوا من عذاب شديد مؤلم .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى (من قِبْل أن يأتيهم عذاب أليم) أنه يخوفهم غضب الله تعالى عليهم إذ عبدوا الأصنام ولم يتقوا الله ولم يطيعوا ما جاءهم به رسوله ، فأمره الله أن ينذرهم عذاباً يأتيهم من الله ليكون إنذاره مقدّماً على حلول العذاب.

- وقوم نوح هم الناس الذين كانوا عامرين الأرضَ يومئذٍ ، إذ لا يوجد غيرهم على الأرض كما هو ظاهر حديث الشفاعة وذلك صريح ما في التوراة . [قاله ابن عاشور] .

- **قال ابن عاشور** : وعُدل عن أن يقال له : أنذر الناس إلى قوله : { أنذر قومك } إلهاباً لنفس نوح ليكون شديد الحرص على ما فيه نجاتهم من العذاب ، فإن فيهم أبناءه وقرابته وأحبته .

- قوله تعالى (إِنَّا أَرْسَلْنَا) للتعظيم .

- فامتثل نوح لذلك وابتدر لأمر الله فقال :

(**قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ**) أي : أخوفكم بعذاب الله إن لم تؤمنوا (مبين) أي : بيّن النذارة واضحة .

- والإنذار : الإعلام المقترن بالتخويف والتهديد ، أي : أعلمكم مهدداً لكم بعذاب الله إن لم تنتهوا عن تكذيبكم وكفركم .

(**أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ**) أي فقال لهم : اعبدوا الله وحده ، واتركوا محارمه ، واجتنبوا مآثمه ، وأطيعوني فيما أمرتكم به من طاعة الله ، وترك عبادة الأوثان والأصنام .

كما قال تعالى في سورة الأعراف (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) .

وقال تعالى في سورة المؤمنون (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

(يغفر لكم من ذنوبكم) أي إذا فعلتم ما آمركم به، وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم.

اختلف في معنى (من) :

قيل : أنها بمعنى (عن) تقديره : يصفح لكم عن ذنوبكم ، واختاره ابن جرير .

وقيل : أنها تبعيضية . ثم اختلفوا في المراد بالبعض :

قيل: إن المراد بالبعض المغفور قبل الإيمان، هو ما يتعلق بحقوق الله فقط دون ما يتعلق بحقوق العباد كالقصاص ونحوه، أو هي

الذنوب العظام التي وعدكم الله عليها الانتقام – كما قال ابن كثير –

- **قال ابن جزي** : (من) هنا للتبعيض أي يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا؛ لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم، لأن ذلك في مشيئة الله تعالى .

والمغفرة : ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن عقوبته ، كما في حديث ابن عمر في المناجاة ، أن رسول الله ﷺ (يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه، حتى يضع عليه كنفه –أي ستره ورحمته– فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول: نعم ، أي ربي ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال الله عز وجل : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) متفق عليه .

ومنه سمي المغفر ، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام .

(**وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى**) أي يمتعكم في هذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى ، أي مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره ، إلى وقت محدود ، وليس المتاع أبداً ، فإن الموت لا بد منه .

وهذا القول الأول الذي قيل في الآية : حيث أن الله قال (**ويؤخركم إلى أجل مسمى**) مع إخباره سبحانه وتعالى بامتناع تأخير الأجل إذ قال (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاء لَا يُؤَخَّرُ) ؟

فقيل : المراد تأخير العذاب ، أو منع نزوله فقوله (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : يمنع عنكم العذاب ، فلا يعذبكم بالطوفان ولا بالصيحة ولا بالرجفة ولا بغير ذلك ، فتعيوا آمنين حتى تموتوا بآجالكم .

قال ابن جرير (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : ويؤخر في آجالكم فلا يهلككم بالعذاب ، لا بغرق ولا غيره (إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : إلى حين كتب أنه يبقيكم إليه .

وقال ابن كثير (وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) أي : يمد في أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه أوقعه بكم .

وقيل : المراد بالتأخير في الآجال البركة في الأعمار .

– والأجل المسمى : هو الأجل المعين بتقدير الله عند خلقةِ كل أحد منهم

(**إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر**) أي إن عمر الإنسان عند الله محدود ، لا يزيد ولا ينقص ، فأجل الله إذا جاء وحضر لا يمكن تأخيره ولا تأجيله ، ولا أحد يستطيع منعه ودفعه ، وفي هذا وعيد وتهديد لهم .

– اختلف في المراد بأجل الله : **فقيل** : الأجل الذي قدره الله لهم في الدنيا وهو الموت .**وقيل** : البعث . وقيل : **نزول العذاب** .

(**لو كنتم تعلمون**) أي لو كنتم تعلمون حقيقة العلم النافع لسارعتم إلى الإيمان ، ولما كفرتم وكذبتم بالحق .

– نسب الأجل إلى الله تعالى لأنه الذي قدره وأثبته ، وقد ينسب الأجل إلى القوم ، كما قال تعالى (فإذا جاء أجلهم) لأنه مضروب لهم محدد .

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً) .

[نوح : ٥ – ٢٠] .

(**قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً**) يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح ﷺ أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي قضاها فيهم ، فقال (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً) أي :لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء مرضاتك .

وجعل دعوته مظروفة في زمني الليل والنهار للدلالة على عدم الهوادة في حرصه على إرشادهم ، وأنه يترصد الوقت الذي يتوسم أنهم فيه أقرب إلى فهم دعوته منهم في غيره من أوقات النشاط وهي أوقات النهار ، ومن أوقات الهدوّ وراحة البال وهي أوقات الليل .

- **قال ابن عطية** : هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس عن قومه ، وقوله : {ليلاً ونهاراً} عبارة عن استمرار دعائه ، وأنه لم ين فيه قط ، ويروى عن قتادة أن نوحاً ﷺ كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول : احذر هذا الرجل فإن أبي حذرني إياه ، ويقول له إنه مجنون.

(**فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً**) أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه وحادوا عنه .

(**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ**) أي كلما دعوتهم إلى الإقرار بوحدانية الله والعمل بطاعته ليكون سبباً في مغفرة ذنوبهم :

(**جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ**) أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا دعوتي .

(**وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ**) أي غطوا رؤوسهم ووجوههم بثيابهم لئلا يسمعوا كلامي .

- **قال الرازي** : (واستغشوا ثِيَابَهُمْ) أي : تغطوا بها ، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه كأنهم لم يجوزوا أن يسمعوا كلامه ، ولا أن يروا وجهه ، وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا ، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم ، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك ، صار المانع من السماع أقوى.

وقال بعض العلماء : أو ليعرّفوه إعراضهم عنه.

(**وَأَصَرُّوا**) أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع .

(**وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً**) واستكبروا عن الحق ، وشرهم ازداد ، وخيرهم بعُد ، فإنهم قالوا (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) .

(**ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً**) أي جهرة بين الناس .

(**ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ**) أي : كلاماً ظاهراً بصوت عال .

(**وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً**) أي فيما بيني وبينهم .

ومقصود هذا الكلام : أنه نوّع في دعوتهم لتكون أنجع فيهم ، وكل هذا من نوح حرص ونصح وإتيانهم بكل طريق يظن به

حصول المقصود .

- **قال القرطبي** : وكل هذا من نوح عليه السلام مبالغة في الدعاء لهم ، وتلطُّف في الاستدعاء .
- **وقال ابن جزي** : ذكر أولاً أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة ﷺ .

(**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ**) أي : ارجعوا إليه ، واتركوا ما أنتم عليه من الذنوب ، واستغفروا الله .

(**إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً**) كثير المغفرة لمن تاب واستغفر .

قال السعدي : فرغبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليه من الثواب واندفاع العقاب .

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل ، فقال :

(**يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً**) أي مطراً متتابعاً ، يروي الشعاب والوهاد ، ويحيي البلاد والعباد .

- **قال ابن كثير** : ولهذا يستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء لأجل هذه الآية ، وهكذا روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار وقراءة الآيات في الاستغفار ، ومنها : هذه الآية ، ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر " .
- **قال الرازي** : واعلم أن الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة ، ولذلك قال تعالى (وأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن الله وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) فلا جرم أعلمهم الله تعالى ههنا أن إيمانهم بالله يجمع لهم مع الحظ الوافر في الآخرة الخصب والغنى في الدنيا.
- **قال ابن عطية** : وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا .
- **قال ابن جزي** : في الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار، ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أن استغفر ثم انصرف، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء، ثم نزل المطر، وشكا رجل إلى الحسن الجدب فقال له: استغفر الله.

(**وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ**) أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، أعطاكم الأموال التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأعطاكم الأولاد .

- وخص من الأولاد الذكور ، لأن الذكور أفضل من الإناث وأحب إليهم ، كما قال امرأة عمران (وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى) .

فوعدهم إذا استغفروا الله وتابوا إليه بالإمداد بالأموال والبنين ، وهما زينة الحياة الدنيا كما قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

(**وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ**) أي : ويجعل لكم بساتين كثيرة الأشجار والزروع والثمار تأكلون من ثمارها وتطعمون مواشيكم من نباتها .

وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً) أي : ويجعل لكم أنهاراً تجري وسط هذه الجنات تربون منها ، وتغتسلون فيها وتسقون منها زروعكم وحروثكم ومواشيكم .

وهكذا قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ).

- فالاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات .

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى ءامَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بركات) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ) .

وقال تعالى (وَأَلَّوِ استقاموا عَلَى الطريقة لأسقيناهم مَّاء غَدَقاً) .

وقال تعالى (وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ) .

وقال تعالى (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بالصلاة واصطبر عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ) .

- **قال ابن عاشور** : وفي هذا دلالة على أن الله يجازي عباده الصالحين بطيب العيش قال تعالى (مَن عمِل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياة طيبة) .

– هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب ، فقال :

(**مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً**) أي ما لكم لا تخافون لله عظمته وكبرياءه وهو القاهر فوق عباده .

(**وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً**) أي خلقاً من بعد خلق ، في بطن الأم ، ثم في الرضاع ، ثم في سن الطفولة ، ثم التمييز ، ثم الشباب ، ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق ، فموجب خلقه لكم وإنعامه عليكم بسائر النعم أن تعبدوه وتعظموه .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضغة عِظَاماً فَكَسَوْنَا العظام لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخالقين) .

وهذا مروي معناه عن ابن عباس. قاله ابن كثير والقرطبي.

وقيل أطواراً : شباباً وشيوخاً وضعفاء.

وقيل أطواراً : أي أنواعاً صحيحاً وسقيماً وبصيراً وضريراً وغنياً وفقيراً.

وقيل أطواراً : اختلافهم في الأخلاق والأفعال. قاله القرطبي.

والراجح الأول ، أن الآية في قضية الخلق وهو الإيجاد الأول ، لأن ما بعد الإيجاد صفات عارضة ، ولأن الآية سِيقت في الدلالة على قدرة الله على لبعثهم بعد موتهم لمجازاتهم ، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلقة والقدرة على الإيجاد ، والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم من نطفة أمشاج وماء مهين ، ثم تطويرها إلى علقة ، ثم تطوير العلقة مضغة ، ثم خلق المضغة عظاماً ، ثم كسوا العظام لحماً ، ثم نشأته نشأة أخرى ، إنها قدرة باهرة وسلطة قاهرة.

- **قال السعدي** : وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

(**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً**) ألم تشاهدوا يا معشر القوم عظمة الله وقدرته، وتنظروا نظر اعتبار وتفكر وتدبر، كيف أن الله العظيم الجليل خلق سبع سموات سماء فوق سماء ، متطابقة فوق بعض ، وهي في غاية الإبداع والإتقان .

(**وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً**) أي وجعل القمر في السموات السبع نوراً .

(**وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً**) أي وجعل الشمس مصباحاً مضيئاً يستضيء به أهل الدنيا كما يستضيء الناس بالسراج في بيوتهم .

– وعبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه .

- **قال ابن جزي** : وجعل القمر نوراً والشمس سراجاً، لأن ضوء السراج أقوى من النور، فإن السراج هو الذي يضيء فيبصر به والنور قد يكون أقل من ذلك.

(**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً**) أي حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه .

قال ابن عاشور : وأُطلق على معنى : أنشأكم ، فعلُ (أنبتكم) للمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات من حيث إن كليهما تكوين كما قال تعالى (وأنبتها نباتاً حسناً) ، أي أنشأها .

(**ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا**) أي يرجعكم إلى الأرض بعد موتكم فتدفنون فيها .

(**وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً**) أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة .

كما قال تعالى (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) .

وقال تعالى (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ) .

(**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً**) أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات .
(**لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً**) (اللام) للتعليل ، أي : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، والسُّبُل : الطرق ، والفجاج جمع فَجّ ، وهو الطريق الواسعة ، قاله الفرّاء ، وقيل : الفجّ المسلك بين الجبلين.
كما قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) .

- **قال ابن كثير** :وكل هذا مما ينبههم به نوح على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق جعل السماء بناءً ، والأرض مهاداً وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحّد ولا يشرك به أحد لأنه لا نظير له ولا عديل ولا ند ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلي الكبير .

(قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً (٢١) وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً) .
[نوح : ٢١ – ٢٨] .

(**قَالَ نُوحٌ**) شاكياً لربه : أن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد .
(**رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي**) أي لم يطيعوني فيما دعوتهم إليه وأمرتهم به من عبادتك وحدك وترك الشرك بك .
وممن عصاه وكفر به : زوجته وابنه . كما قال تعالى (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ) .
وقال تعالى (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ) .
قوله تعالى (**فخانتاهما**) ليس المراد في فاحشة ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء ، قال ابن عباس : أما خيانة امرأت نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأت لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

- **بعض الاتهامات التي وجهت لنوح من قبل قومه :**

أولاً : اتهموه بالجنون .
قال تعالى (كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ) .
ثانياً : اتهموه بكثرة الجدال .
قال تعالى عنهم (قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) .
ثالثاً : اتهموه بالضلال .

قال تعالى (قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ) .

رابعاً : توعدوه بالرجم .

قال تعالى عنهم (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) .

خامساً : التهكم والسخرية .

قال تعالى (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) .

(**وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً**) أي : واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ومُتِّع بمال وأولاد ، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام .

- **قال الخازن** : يعني اتبع السفلة والفقراء القادة والرؤساء الذين لم تزدهم كثرة المال والولد إلا ضلالاً في الدنيا وعقوبة في الآخرة .

- **قال ابن عاشور** : وعدل عن التعبير عنهم بالكبراء ونحوه إلى الموصول لما تؤذن به الصلة من بطرهم نعمة الله عليهم بالأموال والأولاد ، فقلبوا النعمة عندهم موجب خسار وضلال.

وأدمج في الصلة أنهم أهل أموال وأولاد إيماء إلى أن ذلك سبب نفاذ قولهم في قومهم وائتمار القوم بأمرهم : فأموالهم إذ أنفقوها لتأليف أتباعهم قال تعالى (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله) وأولادُهم أرهبوا بهم من يقاومهم.

والمعنى : واتبعوا أهل الأموال والأولاد التي لم تزدهم تلك الأموال والأولاد إلاّ خساراً لأنهم استعملوها في تأييد الكفر والفساد فزادتهم خساراً إذ لو لم تكن لهم أموال ولا أولاد لكانوا أقل ارتكاباً للفساد قال تعالى (وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلاً).

(**وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً**) أي مكراً عظيماً في معاندة الحق ، فتمادوا في المخالفة والغي والعصيان والتمرد والضلال .

- والمكر : هو الكيد بخفية في معاندة الحق .

- **قال ابن عاشور** : والمكر : إخفاء العمل ، أو الرأي الذي يراد به ضر الغير ، أي مكروا بنوح والذين آمنوا معه بإضمار الكيد لهم حتى يقعوا في الضر.

- **قال الشوكاني** : واختلف في مكرهم هذا ما هو؟

فقيل هو تحريشهم سفلتهم على قتل نوح ، وقيل هو تغريرهم على الناس بما أوتوا من المال والولد حتى قال الضعفة لولا أنهم على الحق لما أوتوا هذه النعم. وقال الكلبي هو ما جعلوه لله من الصاحبة والولد. وقال مقاتل هو قول كبرائهم لأتباعهم لا تذرنّ آلهتكم وقيل مكرهم كفرهم .

- **وقال الخازن** : مكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح عليه الصلاة والسلام وتحريش السفلة على أذاه وصد الناس عن الإيمان به والميل إليه والاستماع منه. وقيل مكرهم هو قولهم لا تذرن آلهتكم وتعبدوا إله نوح، وقال ابن عباس في مكرهم قالوا قولاً عظيماً. وقيل افتروا على الله الكذب وكذبوا رسله .

(**وَقَالُوا**) أي : قال بعضهم لبعض ، أو قال أصحاب الأموال والأعين داعين إلى الشرك :

(**لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ**) أي لا تتركوا عبادة الأوثان والأصنام وتعبدون ربّ نوح .

(**وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرا**) أي لا تتركوا على وجه الخصوص هذه الأصنام الخمسة : وداً ، وسواعاً ، ويغوث ، ويعوق ، ونسراً ، لأنها أعظم وأهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله .

- **قال الخازن** : هذه أسماء آلهتهم وإنما أفرد بالذكر وإن كانت داخلة في جملة قوله لا تذرن آلهتكم لأنهم كانت لهم أصنام هذه الخمسة المذكورة هي أعظمها عندهم .

- **وقال الشوكاني** : ووجه تخصيص هذه الأصنام بالذكر مع دخولها تحت الالهة لأنها كانت أكبر أصنامهم وأعظمها .

وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله .

عن ابن عباس قال (هي أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت) رواه البخاري .

(**وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً**) يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم .

وقد قال الخليل عليه السلام (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) .

وقيل : أي : أضل كبرؤهم كثيراً من أتباعهم .

ورجح هذا القول : أبو حيان ، والألوسي ، وقصر القول عليه السعدي ، وابن عاشور .

واقتصر ابن جرير ، وابن كثير على القول بأن المراد هم الأصنام .

- **قال أبو حيان** : .... لكن عوده على الرؤساء أظهر إذ هم المحدَّث عنه .
- **قال القرطبي** : (وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً) هذا من قول نوح ، أي أضلّ كبراؤهم كثيراً من أتباعهم ، فهو عطف على قوله : { وَمَكَرُواْ مَكْراً كُبَّاراً) ، **وقيل** : إن الأصنام (أَضَلُّوا كَثِيراً) أي ضلّ بسببها كثير ، نظيره قول إبراهيم (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ الناس) فأجرى عليهم وصف ما يعقل ، لاعتقاد الكفار فيهم ذلك.
- **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وقد أضلوا كثيراً) فيه قولان.

أحدهما : وقد أضلت الأصنام كثيراً من الناس ، أي : ضلوا بسببها.

والثاني : وقد أضلَّ الكبراء كثيراً من الناس .

- **وقال الخازن** (وقد أضلوا كثيراً) أي ضل بسبب الأصنام كثير من الناس. وقيل أضل كبراء قوم نوح كثيراً من الناس .
- **الشوكاني** : (وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيراً) أي أضلّ كبراؤهم ورؤساؤهم كثيراً من الناس. وقيل الضمير راجع إلى الأصنام أي ضلّ بسببها كثير من الناس كقول إبراهيم (رب إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ) .

(**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً**) دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون ومن معه في قوله (ربَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيم) .

(**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً**) أي بسبب إجرامهم وكفرهم وإصرارهم على ذلك أغرقوا بالطوفان ، ثم نقلت الأرواح إلى النار .

كما قال تعالى (وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) .

قال تعالى (فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) .

قال تعالى (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ) .

وقال تعالى (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ) .

- ذكر المفسرون في قصة نوح أن كل الجبال غمرها الطوفان ، وهو ظاهر القرآن ، بدليل أن ابن نوح حينما قال له أبوه : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، رد عليه ابنه قائلاً : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، فرد عليه نوح عليه السلام قائلاً : لا

عاصم اليوم من أمر الله .
- والظاهر أن كل من لم يكن في السفينة من أهل الأرض قد غرقوا كما قال تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة)
[الفلك المشحون] المملوء .   [بماء منهمر] المنهمر الكثير .
[التنور] وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء . وهذا قول جمهور السلف والخلف . [تفسير ابن كثير : ٢ / ٣٨٢] .

(**فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً**) أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله .

- **قال الرازي** : (فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُمْ مّن دُونِ الله أَنصَاراً) وهذا تعريض بأنهم إنما واظبوا على عبادة تلك الأصنام لتكون دافعة للآفات عنهم جالبة للمنافع إليهم ، فلما جاءهم عذاب الله لم ينتفعوا بتلك الأصنام ، وما قدرت تلك الأصنام على دفع عذاب الله عنهم ، وهو كقوله (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مّن دُونِنَا) .

(**وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً**) أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً .
- قال بعض العلماء : ديار : هي الأسماء المستعملة في النفي العام ، يقال: ما في الدار ديار، أي ما فيها أحد.
ثم بين السبب فقال :
(**إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ**) أي : أنك إذا أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك ، أي الذين تخلقهم بعدهم .
(**وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**) أي فاجراً في الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

- **قال ابن عاشور** : والمعنى : ولا يلدوا إلاّ من يصير فاجراً كفَّاراً عند بلوغه سن العقل.

والفاجر : المتصف بالفجور ، وهو العمل الشديد الفساد.
والكَفَّار : مبالغة في الموصوف بالكفر ، أي إلاّ من يجمع بين سوء الفعل وسوء الاعتقاد ، قال
- فإن قيل : كيف عرف نوح عليه السلام ذلك ؟ قلنا : للنص والاستقراء ، أما النص فقوله تعالى (وَأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ من قد آمن) .
وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فعرف طباعهم وجربهم ، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبي أوصاني بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك . [تفسير الرازي] .

- **وقال السعدي** : وإنما قال نوح -عليه السلام- ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم .
- **قال الشنقيطي** : قوله تعالى (إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً) هذه الآية الكريمة تدل على أن نوحاً عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عالم بما يصير إليه الأولاد من الفجور والكفر قبل ولادتهم وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله كقوله (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ) وكقول نوح نفسه فيما ذكره الله عنه في سورة هود (قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْب) .

والجواب عن هذا ظاهر وهو أنه علم بوحي من الله أن قومه لا يؤمن منهم أحد إلا من آمن كما بينه بقوله تعالى (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَن) .

- **قال ابن عاشور** : وفي كلام نوح دلالة على أن المصلحين يهتمون بإصلاح جيلهم الحاضر ولا يهملون تأسيس أسس إصلاح الأجيال الآتية إذ الأجيال كلها سواء في نظرهم الإصلاحي.

(**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً**) خص هؤلاء المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم .

- **قال الخازن** : وإنما بدأ بنفسه لأنها أولى بالتخصيص والتقديم ثم ثنى بالمتصلين به لأنهم أحق بدعائه من غيرهم ثم عمم جميع المؤمنين والمؤمنات ليكون ذلك أبلغ في الدعاء .

- وقد اختلف في المراد بقوله (بيتي) :

فقيل : يعني مسجدي ، **وقيل** : بيته المعروف ، **قال ابن كثير** : ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن .

- **قال ابن جزي** : (وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً) قيل: بيته المسجد، وقيل: السفينة. وقيل: شريعته، سماها بيتاً استعارة وهذا بعيد، وقيل: داره وهذا أرجح لأنه الحقيقة .

(**وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**) ثم عمّم الدعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات .

(**وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً**) أي : ولا تزد يا رب من جحد بآياتك وكذب رسلك إلا هلاكاً وخساراً في الدنيا والآخرة .

الفوائد :

١- أن نوحاً رسول من الله .

كما قال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) .

وهو أول رسول بعثه الله .

ففي حديث الشفاعة الطويل : ... أنت أول رسول أرسله الله ...) .

٢- بيان الحكمة من إرسال الرسل ، وهي :

أولاً : الرحمة .

كما قال تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

ثانياً : التبشير والإنذار .

كما قال تعالى : (رسلاً مبشرين ومنذرين) .

٣- رحمة الله بالناس بإرسال الرسل .

٤- أن الله لا يعذب قوماً حتى يرسل لهم رسولاً لإقامة الحجة ،كما قال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) .

٥- أن الله أرسل لكل قوم رسول .

كما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ...) .

وقال تعالى : (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) .

٦- أن دعوة الرسول واضحة بينة لا لبس فيها .

٧- أن دعوة الرسل كلهم عبادة الله واجتناب الشرك .

كما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

٨- أن طاعة الرسول سبب لمغفرة الذنوب .

٩- أن الموت له وقت محدد لا يتقدم ولا يتأخر .

كما قال تعالى : (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

١٠- حرص نوح على دعوة قومه ، ومحل ذلك في أمور :

أولاً : أنه اجتهد في دعوتهم في كل وقت وزمان .

ثانياً : أنه نوّع في دعوتهم مرة جهاراً ومرة سراً .

ثالثاً : استعمل معهم أسلوب الترغيب ، ثم استعمل معهم أسلوب الترهيب .

١١- ينبغي للداعية أن يقتدي بالأنبياء في صبرهم ودعوتهم وتحملهم الأذى .

١٢- ينبغي الاستفادة من قصص الأنبياء في أسلوب الدعوة .

١٣- شدة عناد وكفر الكفار حتى أنهم يجعلون أصابعهم في آذانهم لكي لا يسمعوا الحق .

١٤- أن الاستغفار سبب لجلب الأرزاق . ومما يدل لذلك أيضاً :

- قوله تعالى : (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله) .

- وقال نبي الله هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم) .

١٥- استعمال الحكمة في الدعوة ، فإن نوحاً لما رأى أن قومه يحبون الدنيا أرشدهم إلى الاستغفار ليحصل لهم المال والولد .

١٦- استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن من كانت له رغبة في مال أو ولد فليكثر من الاستغفار .

١٧- وجوب تعظيم الله ، ومن تعظيم الله طاعته وعبادته وعدم الإشراك معه .

١٨- أن من أشرك مع الله آلهة أخرى لم يعظم الله حق تعظيمه .

١٩- أن السموات سبع .

٢٠- عظم نعمة الله علينا ، وقد ذكر الله منها في هذه الآية :

السموات . القمر . نور الشمس . جعل الأرض بساطاً .

٢١- أن الموت لا بد منه ولا مفر منه .

٢٢- تقرير عقيدة البعث .

٢٣- شدة كفر وعناد قوم نوح .

٢٤- أن عبادة الأصنام سبب في ضلال كثير من الناس .

كما قال تعالى : (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . ربِّ إنهنّ أضللن كثيراً من الناس) .

٢٥- يجب على الإنسان أن يخاف من الشرك ، لأن كثيراً من الناس وقعوا فيه .

٢٦- أن سبب هلاك قوم نوح هو خطيئتهم وكفرهم .

٢٧- أن سبب هلاك الأمم هو الكفر والعصيان .

٢٨- أن الله عذب قوم نوح بالغرق .

كما قال تعالى : (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) .

وقال تعالى : (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين) .

وقال تعالى : (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر) .

وقد تنوعت كيفية هلاك الأمم ، فبعضهم بالغرق ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالصيحة .

كما قال تعالى : (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

٢٩- شدة عذاب الله إذا وقع .

٣٠- أن عذاب الله إذا وقع لا مفرّ منه ولا نجاة .

٣١- مشروعية الدعاء على الكفرة الظالمين .

٣٢- مشروعية أن يبدأ الداعي بنفسه .

وقد كان النبي ﷺ إذا دعا بدأ بنفسه .

٣٣- أن والديّ نوح أسلما معه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الجن

مقدمة :

سورة الجن مكية بالاتفاق .

أسماؤها :

سميت هذه السورة سورة الجن وكتبت في المصاحف ، كما كتبت في كتب التفسير .

سميت بذلك لاشتمالها على ذكر أحوال الجن وأقوالهم ، وعلاقتهم بالإنس .

أغراضها :

تعالج أصول العقيدة الإسلامية (الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء) .

ومحور السورة يدور حول الجن ، وما يتعلق بهم من أمور خاصة ، بدءا من استماعهم للقرآن ، إلى دخولهم فى الإيمان .

وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم ، كاستراقهم للسمع ، ورميهم بالشهب المحرقة ، واطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية ، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة.

تنبيه :

اختلفت الروايات في أنه ﷺ رأى الجن وكلمهم على قولين :

القول الأول : وهو مذهب ابن عباس، أنه ﷺ ما رآهم:

قال: إن الجن كانوا يقصدون السماء في الفترة بين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - فيسمعون أَخبار السماءِ ويلقونها إلى الكهنة، فما بعث رسول الله ﷺ حرست السماءُ وحيل بين الشياطين وبين خبر السماءِ وأُرسلت الشهب عليهم فرجعوا إلى إبليس - عليه اللعنة - فأَخبروه بالقصة، فقال: لا بد لهذا من سبب، فاضربوا مشارق الأَرض ومغاربها واطلبوا السبب، فوصل جمع من أُولئك الطالبين إلى تهامة فرأَوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ وهو يصلي بأَصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا: هذا والله هو الذي حال بينكم وبين حال السماءِ، فهناك رجعوا إلى قومهم وقالوا: يا قومنا (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا) فأَخبر الله نبيه محمد ﷺ عن ذلك الغيب وقال: (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ) كذا وكذا .

قال: وفي هذا دليل على أنه ﷺ لم ير الجن، إذ لو رآهم لما أُسند معرفة هذه الواقعة إلى الوحي، فإن ما عرف وجوده بالمشاهدة لا يسند إثباته إلى الوحي.

القول الثاني: وهو مذهب ابن مسعود: أَن الرسول صلى الله عليه وسلم أَتاه داعي الجن فذهب معه وقرأ عليهم القرآن .

وأَن ابن مسعود سار مع رسول الله ﷺ حين انطلق به وبغيره بربه آثار الجن وآثار نيرانهم.

وطريق التوفيق بين المذهبين : أَن ما ذكر ابن عباس وقع أَولًا، فأَوحى الله إلى رسوله بهذه السورة، ثم أُمر ﷺ بالخروج إليهم بعد ذلك كما روى ابن مسعود.

- **قال ابن كثير** عن إحدى الروايات التي أوردها: "وهذا يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته، ثم رجعوا إلى قومهم . ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسالا قوما بعد قوم، وفوجا بعد فوج، كما سيأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار .

وقال : فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا، فتلا عليهم القرآن، ودعاهم إلى الله، عز وجل، وشرع الله لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت. وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن ولم يشعر بهم، كما قاله ابن عباس، رضي الله عنهما، ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود . (تفسير ابن كثير) .

جاء في (**التفسير الوسيط**) ويبدو لنا من مجموع الروايات، أن لقاء النبي ﷺ بالجن قد تعدد، وأنهم تارة استمعوا إليه ﷺ دون أن يراهم، وتارة التقى بهم وقرأ عليهم القرآن .

(قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً) .

[الجن : ١- ٧] .

(**قُلْ**) يا محمد للناس .

(**أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ**) أن ربي أوحى إلي أن جماعة من الجنّ استمعوا لتلاوتي للقرآن ، فآمنوا به وصدقوه وأسلموا .

- **قال الرازي** : اعلم أن قوله تعالى : {قُلْ} أمر منه تعالى لرسوله أن يظهر لأصحابه ما أوحى الله في واقعة الجن، وفيه فوائد:

إحداها : أن يعرفوا بذلك أنه عليه السلام كما بعث إلى الإنس ، فقد بعث إلى الجن .

وثانيها : أن يعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه ، فآمنوا بالرسول .

وثالثها : أن يعلم القوم أن الجن مكلفون كالإنس .

ورابعها : أن يعلم أن الجن يستمعون كلامنا ويفهمون لغاتنا .

وخامسها : أن يظهر أن المؤمن منهم يدعو غيره من قبيلته إلى الإيمان ، وفي كل هذه الوجوه مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.

- **وقال الخازن** : أمر الله نبيه ﷺ أن يظهر لأصحابه واقعة الجن وكما أنه مبعوث إلى الإنس فهو أيضاً مبعوث إلى الجن لتعلم قريش أن الجن مع تمردهم لما سمعوا القرآن عرفوا إعجازه فآمنوا به .

(**فَقَالُوا**) لقومهم لما رجعوا إليهم كما قال تعالى (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

(**إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً**) أي فقالت الجنّ لقومهم حين رجعوا إليهم إنا سمعنا قرآناً عجيباً بليغاً بديعاً ليس من كلام الإنس والجن، يعجب سامعه من فصاحته وبلاغته في ألفاظه ومعانيه وأخباره وأحكامه ومواعظه ووعده ووعيده وغير ذلك .

- **قال أبو حيان** : أي هو عجب في نفسه لفصاحة كلامه ، وحسن مبانيه ، ودقة معانيه ، وغرابة أسلوبه ، وبلاغة مواعظه ، وكونه مبايناً لسائر الكتب ....والعجب ما خرج عن أحد أشكاله ونظائره.

وسبب نزول هذه الآية : عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (مَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا مَا لَكُمْ قَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ . قَالُوا مَا ذَاكَ إِلاَّ مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ . فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ - وَهُوَ بِنَخْلٍ - عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّى بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ وَقَالُوا هَذَا الَّذِى حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ . فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ (قُلْ أُوحِىَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ) .

- والغرض من الإخبار عن استماع الجن توبيخ وتقريع قريش والعرب في كونهم تباطأوا عن الإيمان ، إذ كانت الجنّ خيراً منهم وأسرع إلى الإيمان ، فإنهم من حين ما سمعوا القرآن استعظموه وآمنوا به ورجعوا إلى قومهم منذرين .

- وفي هذا أن الرسول ﷺ مرسل للثقلين الإنس والجن .

كما قال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) . قال القرطبي : والمراد بـ(العالمين) هنا الإنس والجن ، لأن النبي ﷺ قد كان رسولاً إليهما .

وقال تعالى (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ) ذكر القرطبي نقلاً عن مقاتل : من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له .

وقال تعالى (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ)

- **قال الرازي** : هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان مبعوثاً إلى الجن كما كان مبعوثاً إلى الإنس .
- **وقال ابن كثير** : فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الإنس والجن ، حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعيدهم وهي سورة الرحمن .

وقال تعالى (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) .

- **قال الآلوسي** : وتخصيص الثقلين بالذكر ، لأن المنكر لكونه من عند الله تعالى ، منهما لا من غيرهما .

وقال ﷺ (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ... كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود) رواه مسلم .

- **قال النووي** : قيل : المراد بالأحمر البيض من العجم وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم ، وقيل : الأحمر الإنس والأسود الجن والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم .

(**يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ**) أي إلى السداد والنجاح ،كما قال تعالى (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) .

- **قال ابن عاشور** (الرشد) بضم الراء وسكون الشين (أو يقال بفتح الراء وفتح الشين) هو الخير والصواب والهدى.

-جاء في (**التفسير الوسيط**) ووصفهم للقرآن بكونه قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ يدل على تأثرهم به تأثرا شديدا، وعلى إعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة.. ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء في قوله: فَآمَنَّا بِهِ .

(**فَآمَنَّا بِهِ**) أي : صدقنا به وانقدنا له واتبعناه .

(**وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً**) أي ولن نعود إلى ما كنا عليه من الشرك ، بل سنعبده وحده ونخلص العبادة له وحده لا شريك له .

- **قال السعدي** : وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ، ما علموه من إرشادات القرآن ، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضار ، ... وهذا هو الإيمان النافع المثمر لكل خير ، المبني على هداية القرآن ، بخلاف إيمان العوائد والمرْبَى والإلف ونحو ذلك ، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة .
- (**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً**) أي تعالت عظمته وتعالى مقامه عن اتخاذ الزوجة والولد ، فإن اتخاذ الصاحبة يكون للاستئناس بها ولإشباع شهوته ورغبته ، وكل ذلك غير موجود في حق الله سبحانه ، فهو العزيز الواحد الأحد الفرد الصمد **قال القرطبي**: الجد في اللغة: العظمة والجلال، ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد في عيوننا. أي: عظم. فمعنى جد ربنا: عظمته وجلاله... وقيل معنى «جد ربنا ... » : غناه، ومنه قيل للحظ جد. ورجل مجدود، أي : محظوظ ، وفي الحديث: ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، أي : ولا ينفع ذا الغنى منك غناه، وإنما تنفعه الطاعة.
- **قال ابن عاشور** : لأن اتخاذ الصاحبة للافتقار إليها لأنسها وعونها والالتذاذ بصحبتها ، وكل ذلك من آثار الاحتياج ، والله تعالى الغني المطلق ، وتعالِي جَدّه بغناه المطلق ، والولد يرغب فيه للاستعانة والأنس به ، مع ما يقتضيه من انفصاله من أجزاء والديه وكل ذلك من الافتقار والانتقاص .

- والله منزه عن الولد لأمور متعددة :

أولاً : لأنه مالك كل شيء ، والمالك لا بد أن يكون المملوك مبايناً له في كل الأحوال .

ثانياً : أنه ليس له زوجة ، والابن إنما يكون غالباً ممن له زوجة كما ذكر اله ذلك في سورة الأنعام (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ) .

ثالثاً : أن الولد إنما يكون لمن يحتاج للبقاء ، أي : بقاء النوع باستمرار النسل ، والرب عز وجل ليس بحاجة إلى ذلك ، لأنه الحي الذي لا يموت .

رابعاً : أن الابن إنما يحتاج إليه والده ليساعده ويعينه على شؤونه وأموره ، والله سبحانه وتعالى غني ، وقد أشار إلى ذلك بقوله (سبحانه هو الغني) . [قاله الشيخ ابن عثيمين] .

- وإذا ذكر في القرآن نسبة الولد لله ، نزه تعالى نفسه عن ذلك :

كقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ) .

وقوله تعالى (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ) .

وقوله تعالى (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) .

وقوله تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) .

وقوله تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً) .

وقوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

وقوله تعالى (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) .

- وفي هذا وما بعده يفيد أنهم آمنوا عن معرفة منهم بعظمة الله ، وعن فهم للإيمان وما يترتب عليه من مصالح الدين والدنيا ومن

الثواب العظيم في الآخرة ، وليس إيمان العادة والإلف والتقليد ، الذي قد يضعف أو يزول أمام الشبهات والشهوات .

(**وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً**) هذا من قول الجن ، أي وأن الجاهل فينا كان ينسب إلى الله ما لا يليق بجلاله وعظمته ، ويقول قولاً شططاً أي : باطلاً وزوراً وكذباً ، وقيل : المراد بالسفيه إبليس .

فالمراد بالسفيه هنا:

قيل : إبليس لعنه الله .

وقيل المراد به الجنس فيشمل كل كافر ومتمرد من الجن، والشطط، مجاوزة الحد والعدل في كل شيء .

والمعنى : أي أننا ننزه الله– تعالى– عما كان يقوله سفهاؤنا– وعلى رأسهم إبليس– من أن لله– عز وجل– صاحبة أو ولدا، فإن هذا القول بعيد كل البعد عن الحق والعدل والصواب .   (التفسير الوسيط) .

اختلف العلماء في المراد بالسفيه على قولين :

قيل : السفيه من الجن العاصي المتمرد منهم .

واختار هذا القول : ابن عطية ، والبقاعي ، والقاسمي .

–**قال ابن عطية** : وقال آخرون : هم اسم جنس لكل سفيه منهم ، ولا محالة إن إبليس صدْر في السفهاء وهذا القول أحسن .

وقيل : إنه إبليس .

واختاره ابن جرير ، والبغوي ، وعزاه الآلوسي للجمهور .

والأول أقرب .

– والسفيه من لا يحسن التصرف ، والسفه يكون في الدين ويكون في المال ويكون في الولاية ، والمراد به هنا السفه في الدين كما قال تعالى (وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ) . وقال تعالى (سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا) وقال تعالى في وصف المنافقين (أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ) .

(**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً**) أي : ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به ، علمنا أنهم كانوا يكذّبون على الله في ذلك .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَنَّا ظَنَنَّآ) أي : حسبنا (أَن لَّن تَقُولَ الإنس والجن عَلَى الله كَذِباً) ، فلذلك صدقناهم في أن لله صاحبة وولداً ، حتى سمعنا القرآن وتبيَّنا به الحقّ.
- **قال الطبري** : إنما أنكر هؤلاء النفر من الجن أن تكون علمت أن أحداً يجترئ الكذب على الله لما سمعت القرآن ، لأنهم قبل أن يسمعوه ، وقبل أن يعلموا تكذيب الله للزاعمين لله الصاحبة والولد كانوا يحسبون أن إبليس صادق ، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه كان كاذباً في ذلك فسموه سفيهاً .

– وفي هذا نوع من الاعتذار عما حصل منهم من تقليد هؤلاء الرؤساء بما هم عليه من الباطل .

– فيه أن هناك من يكذب ويفتري على الله .

كما قال تعالى (وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ) .

وقال تعالى (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً) .

(**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ**) أي : يستعيذون بهم ويستنجدون تعظيماً لهم وخوفاً منهم ، حيث كان الواحد منهم إذا نزل وادياً قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهاء قومه .

- **قال الرازي** : قول جمهور المفسرين أن الرجل في الجاهلية إذا سافر فأمسى في قفر من الأرض قال : أعوذ بسيد هذا الوادي أو بعزيز هذا المكان من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جوار منهم حتى يصبح

(**فَزَادُوهُمْ رَهَقاً**) أي : فزاد الجن الإنس خوفاً وذلاً ورعباً وفزعاً ، وزاد الإنس الجنّ طغياناً وإثماً ، فازدادت جرأة الجن وتعاظمهم عليهم وتخويفهم لهم ، لما رأوا استعاذتهم بهم وخوفهم منهم .

- فقوله تعالى (**فَزَادُوهُمْ رَهَقاً**) فيها قولان للعلماء :

الأول : أن الإنس زادوا الجن رهقاً لتعوذهم بهم ، والمعنى على هذا : زادوهم طغياناً وغياً .

الثاني : أن الجن زادوا الإنس رهقاً ، أي : خوفاً وذعراً وفزعاً .

ولا مانع من القولين ، فالجن زادت الإنس خوفاً وذعراً لما لجئوا إليهم ، وآل أمر هذا الالتجاء إلى طغيان الجن وغيهم .

- لا يجوز الاستعانة بالجن المسلم لأمور :

أولاً : وجود الجن في زمن النبي ﷺ ، ولم يرد أن النبي ﷺ استعان بهم في شيء من أمره .

ثانياً : قوله تعالى كما في هذه الآية (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً) .

(**وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً**) أي : وقالت الجن لقومهم : أن كفار الإنس ظنوا كما ظننتم يا معشر الجن ، أن الله لن يبعث أحداً بعد الموت ، فقد أنكروا البعث كما أنكرتموه أنتم .

فهذا الكلام من كلام الجن لقومهم ، واختاره الطبري .

وقيل : أنه من الوحي الذي أوحاه الله لرسوله ، وأن المعنى : وأن الجن كانوا ينكرون البعث كإنكاركم يا معشر قريش ، فلما سمعوا القرآن اهتدوا ، فهلا اهتديتم ؟

- **قال أبو حيان** : قوله تعالى (أن لن يبعث الله أحداً) الظاهر أنه بعثة الرسالة إلى الخلق ، وهو أنسب لما تقدم من الآي ولما تأخر ، وقيل : بعث القيامة.
- **قال ابن عاشور** : والبعث يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر ، أي حصل لهم مثلما حصل لكم من إنكار الحشر ومن إنكار إرسال الرسل ، والإخبار عن هذا فيه تعريض بالمشركين بأن فساد اعتقادهم تجاوز عالم الإنس إلى عالم الجن.

الفوائد :

١- أن القرآن من عند الله ، وليس للرسول ﷺ إلا التبليغ .

٢- علم الغيب قد استأثر الله تعالى به ، فهذا رسولنا ﷺ قد استمع الجن لقراءته وكانوا نفراً ، ولم يشعر ﷺ بهم .

٣-

٤- أن محمد ﷺ رسول من رسل الله .

٥- الرسول ﷺ مبعوث إلى الثقلين .

٦- الجن موجودون ، ووجودهم ثابت بالكتاب والسنة .

- قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) .
- وقال تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفر من الجن) .
- وقال تعالى : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) .

وأما الأحاديث :

- عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يدعوا: (... أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون) .

- وقال ﷺ : (... فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن إنس ولا جن إلا شهد له يوم القيامة) . رواه البخاري

- وقال ﷺ : (إن عفريتاً من الجن تفلت علي البارحة ...) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ، ولا في أن الله أرسل محمداً إليهم ".

٧- عظمة هذا القرآن وعلو شأنه ، حيث شهدت الجن بأنه عجب فوق مستوى كلام الخلق .

٨- التوفيق بيد الله ، فقد تأخر كثير من الإنس مع علمهم بصدق الرسول ﷺ وأمانته ، ونشأ بينهم ،

٩- أن القرآن يهدي إلى كل ما هو خير في الدنيا والآخرة .

كما قال تعالى : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) .

١٠- أن من شروط الإيمان عدم الشرك .

وقد قال ﷺ : (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله فقد عصم دمه وماله وحسابه على الله) .

١١- تنزيه الله عن الصاحبة والولد .

١٢- أن الإنس والجن يكذبون على الله ، حيث ينسبون إليه الولد والصاحبة .

١٣- أن من يدعي أن لله ولداً أو صاحبة فهو سفيه .لأنه لو كان عاقلاً رزيناً لعرف ما يقول ، وعرف أن الله العلي العظيم مستغنٍ عن كل أحد .

١٤- تحريم الاستعاذة بغير الله .

١٥- ذم المستعيذين بغير الله ، والمستعيذ بالشيء لا شك أنه علق رجاءه به ، واعتمد عليه ، وهذا نوع من الشرك

١٦- أن من التجأ بغير الله خذله .

١٧- إثبات وجود الجن ، وأن فيهم رجالاً ونساءً .

١٨- أن الاستعاذة بغير الله تورث الخوف والضعف .

١٩- يفهم من الآية أن الاستعاذة بالله تورث قوة وأمناً .

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً) .

[الجن : ٨ – ١٠] .

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً) يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمد ﷺ وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق ، وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ورحمته وحفظه لكتابه العزيز .

- قال أبو السعود : قوله تعالى (حرساً شَدِيداً) قوياً وهُم الملائكةُ يمنعونَهُم عنها (وَشُهُباً) جمعُ شهابٍ ، وهيَ الشعلةُ المقتبسةُ من نارِ الكواكبِ.

- قال القرطبي : قوله تعالى (وَأَنَّا لَمَسْنَا السمآء) هذا من قول الجنّ ؛ أي طلبنا خبرها كما جرت عادتنا { فَوَجَدْنَاهَا } قد { مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً } أي حَفَظة ، يعني الملائكة ، والحَرَس : جمع حارس (وَشُهُباً) جمع شهاب ، وهو انقضاض الكواكب المحرقة لهم عن استراق السمع.

(**وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا**) أي : وكنا قبل ذلك نقعد من السماء .

(**مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ**) أي : للاستماع ، أي لاستراق السمع بحيث يستمعون الكلمة الواحدة من خبر السماء فيلقونها على ألسنة الكهان فيكذبون معها مائة كذبة .

(**فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً**) أي من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه .

- قال الرازي : أي كنا نستمع فالآن متى حاولنا الاستماع رمينا بالشهب .
- قال القرطبي :واختلف السَّلَف هل كانت الشياطين تُقذَف قبل المبعث ، أو كان ذلك أمراً حدث لمبعث النبيّ ﷺ ؟

فقال الكلبي وقال قوم : لم تكن تحرس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وسلامه : خمسِمائة عام ، وإنما كان من أجل بعثة النبيّ ﷺ ، فلما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها ، وحُرست بالملائكة والشهب.

وقيل : كان ذلك قبل المبعث ، وإنما زادت بمبعث رسول الله ﷺ إنذاراً بحاله ؛ وهو معنى قوله تعالى : (مُلِئَتْ) أي زيد في حَرَسها ، وهذا قول الأكثرين.

ثم قال القرطبي : والقول بالرمي أصح ؛ لقوله تعالى (فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً) وهذا إخبار عن الجنّ ، أنه زِيد في حرس السماء حتى امتلأت منها ومنهم ؛ ولما رُوي عن ابن عباس قال : " بينما النبيّ صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذا رُمِي بنجم ، فقال : "ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهلية؟" قالوا : كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم. فقال النبيّ ﷺ (إنها لا تُرْمَى لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربّنا سبحانه وتعالى إذا قضى أمراً في السماء سبّح حملة العرش ثم سبّح أهل كل سماء ، حتى ينتهي التسبيح إلى هذه السماء ويستخبرُ أهلُ السماء حملةَ العرش ماذا قال ربكم فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه ، فتتخَطَّف الجنُّ فيُرْمون فما جاءوا به فهو حقّ ولكنهم يزيدون فيه) وهذا يدل على أن الرجم كان قبل المبعث.

- **قال أبو السعود** : والصحيحُ أنه كانَ قبلَ البعثِ أيضاً لكنَّه كثُر الرجمُ بعدَ البعثةِ وزادَ زيادةً حتَّى تنبه لها الإنسُ والجنُّ ومُنعَ الاستراقُ أصلاً فقالُوا ما هذا إلا لأمرِ أراده الله تعالى بأهلِ الأرضِ وذلك قولهم (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ ...) .

- وهذا له شأن عظيم ، ونبأ جسيم ، وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثاً كبيراً ، من خير أو شر ، فلهذا قالوا : (**وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً**) أي : ما ندري هذا الأمر الذي حدث في السماء ، لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَأَنَّا لاَ ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأرض) أي هذا الحرس الذي حرست بهم السماء { أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً } أي خيراً.
- **قال ابن زيد** : قال إبليس لا ندري هل أراد الله بهذا المنع أن يُنزل على أهل الأرض عذاباً أو يُرسل إليهم رسولاً.

وقيل : هو من قول الجنّ فيما بينهم قبل أن يسمعوا قراءة النبيّ ﷺ .

أي لا ندري أَشَرٌّ أُرِيدَ بمن في الأرض بإرسال محمد إليهم ، فإنهم يكذبونه ويهلِكون بتكذيبه كما هلك من كذَّب من الأمم ، أم أراد أن يؤمنوا فيهتدوا ؛ فالشرّ والرشد على هذا الكفر والإيمان ، وعلى هذا كان عندهم علم بمبعث النبيّ ﷺ ، ولما سمعوا قراءته علموا أنهم مُنعوا من السماء حراسة للوحي.

وقيل : لا ؛ بل هذا قول قالوه لقومهم بعد أن انصرفوا إليهم منذرين ؛ أي لما آمنوا أشفقوا ألاّ يؤمن كثير من أهل الأرض فقالوا : إنا لا ندري أيكفر أهل الأرض بما آمنا به أمْ يؤمنون؟

- **قال ابن كثير** : وهذا من أدبهم في العبارة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز

أدب الأنبياء :

قال المسيح عليه السلام (إن كنت قلته فقد علمته) ولم يقل : لم أقله وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب ، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسره فقال : (تعلم ما في نفسي) ثم برأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال : (ولا أعلم ما في نفسك) ثم أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب كلها فقال : (إنك أنت علام الغيوب) .

وقال تعالى عن الخليل (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين) ولم يقل وإذا أمرضني حفظاً للأدب مع الله .

وقال الخضر عليه السلام في السفينة (فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا) ولم يقل فأراد ربك أن يعيبها ، وقال في الغلامين : (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما) .

و النبي ﷺ الرجل أن يستر عورته وإن كان خالياً أدباً مع الله .

والنبي ﷺ نهى أن يرفع المصلي رأسه ، قال ابن القيم : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : هذا من كمال أدب الصلاة : أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقاً خافضاً طرفه إلى الأرض ولا يرفع بصره إلى فوق .

وقال ﷺ (والشر ليس إليك) رواه مسلم .

قيل : لا يتقرب به إليك قاله الخليل بن أحمد وإسحاق بن راهوية وأبو بكر بن خزيمة .

وقيل : لا يضاف إليك على انفراده .

وقيل : الشر لا يصعد إليك .

وقيل : الشر ليس شراً بالنسبة إليك فإنك خلقته بحكمة بالغة وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين .

– أقوال في الأدب :

قال الحسن : إن كان الرجل ليخرج في أدب نفسه السنين ثم السنين .

وقال مخلد بن الحسين : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من الحديث .

وكان يقال : العون لمن لا عون : الأدب .

وقيل : أربع يسود بها العبد : الفقه والأدب والعلم والأمانة .

قيل : سمي الأدب أدباً لأنه يؤدب (يدعو) الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح .

وقيل : من قعد به نسبه نهض به أدبه .

وقيل : من كثر أدبه كثر شرفه .

وقيل : الأدب أحد المنصبين .

كن ابن من شئت واكتسب أدباً يغنيك محموده عن كل نسبِ

قال ابن المبارك : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون .

قال أبو علي الدقاق : العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ويصل بأدبه في طاعته إلى الله .

وقال ابن المبارك : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم . ٣٥٦/٢

الفوائد :

١- شدة عناية الله عز وجل برسالة نبيه محمد ﷺ ، حيث لم يتمكن الجن من الاستراق .

٢- كثرة الملائكة وقوتهم ، حيث كانوا يحرسون السماء .

٣- الأدب مع الله في الكلام، حيث أضافوا الخير إلى الله، والشر حذفوا فاعله تأدباً . ومن أمثلة الأدب مع الله :

- قول إبراهيم : (الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين) ولم يقل : وإذا أمرضني ، حفظاً للأدب مع الله .

- وقول موسى : (ربّ لما أنزلت إلي من خير فقير) . ولم يقل : أطعمني .

- وقال ﷺ : (والشر ليس إليك) . رواه مسلم

- ومن هذا أمر النبي ﷺ الرجل أن يستر عورته وإن كان خالياً لا يراه أحد ، أدباً مع الله .

(وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً) .

[الجن : ١١- ١٧] .

(**وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ**) يقول تعالى مخبراً أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : (وأنا منّا الصالحون) أي منّا قوم صالحون أبرار عاملون بما يرضي الله (ومنّا دون ذلك) أي ليس صلحاء .

- **قال القرطبي** : هذا من قول الجنّ ، أي قال بعضهم لبعض لما دَعوا أصحابهم إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنا كنا قبل استماع القرآن منّا الصالحون ومنّا الكافرون.
- **قال ابن الجوزي** (ومِنَّا دون ذلك) فيه قولان :

أحدهما: أنهم المشركون.

والثاني: أنهم أهل الشرِّ دون الشرك .

(**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً**) أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة كل حزب بما لديهم فرحون .

(**وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ**) أي : وأنا تيقنا أننا لن نعجز الله في الأرض ولن نفوته إذا طلبنا ، ولن نستطي الخروج من حكمه وقدرته .

(**وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً**) أي : ولن نعجزه هاربين ، ولو أمعنا في الهرب فهو علينا قادر وحكمه فينا نافذ سبحانه وتعالى .

- **قال السعدي** : أي : وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله ، وكمال عجزنا ، وأن نواصينا بيد الله فلن نعجزه في الأرض ، ولن نعجزه إن هربنا ، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته ، لا ملجأ منه إلا إليه .

- **قال ابن عطية** : وقولهم (وأنّا ظننا أن لن نعجز) الظن هنا بمعنى العلم. وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم بما سمعوا من محمد ﷺ .

(**وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ**) أي لما سمعنا القرآن العظيم الهادي إلى الصراط المستقيم آمنّا به ، وهم بذلك يفتخرون وحق لهم ذلك، فإن الإيمان بالله والانقياد لأمره أعظم شرف وأعلى درجة يصل إليها البشر كما قال تعالى (نَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

– ثم ذكروا ما يرغب المؤمن ، فقالوا :

(**فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ**) أي بوجوده وانفراده بالإلهية كما يشعر به إحضار اسمه بعنوان الرب إذ الرب هو الخالق فما لا يخلق لا يعبد [قاله ابن عاشور] .

(**فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً**) أي : فلا يخاف أن ينقص من حسناته (ولا رهقاً) ولا يحمل عليه غير سيئاته .

فلا ينقصون من حسناتهم ، ولا يزاد عليهم في السيئات ، ولا يعاقبون بظلم غيرهم .

- قال ابن عاشور : والبخس : الغبن في الأجر ونحوه.

والرهَق : الإهانة ، أي لا يخشى أن يبخس في الجزاء على إيمانه ولا أن يهان ، وفهم منه أن من لا يؤمن يُهان بالعذاب.

فلا يظلمون مثقال ذرة ، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) .

وقال تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) .

كما قال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً) . ظلماً : أي : زيادة في السيئات (ولا هضماً) أي نقصاً في الحسنات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) . وقال تعالى (مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

وقال تعالى (الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

– البخس : النقصان ، والرهق : الزيادة .

(**وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ**) أي : وأنا بعد سماعنا القرآن منّا من أسلم .

– والإسلام : هو الاستسلام لله بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك .

(**وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ**) أي الجائرون عن الحق .

– بخلاف المقسط فإنه العادل ، كما قال تعالى : (إن الله يحب التوابين ويحب المقسطين)) .

(**فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً**) أي : فمن اعتنق الإسلام واتبع الرسول ، فأولئك الذين قصدوا الرشد واهتدوا إلى طريق النجاة والجنة .

(**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**) أي : وأما الكافرون الجائرون عن طريق الحق والإيمان فسيكونون وقوداً لجهنم تسعر بهم ، وذلك جزاء على أعمالهم ، لا ظلم من الله لهم ، كما قال تعالى (فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافرين) .

قال الرازي : فإن قيل :لِمَ ذكر عقاب القاسطين ولمْ يذكر ثواب المسلمين ؟ الجواب : بل ذكر ثواب المؤمنين وهو قوله تعالى (تَحَرَّوْاْ رَشَداً) أي توخوا رشداً عظيماً لا يبلغ كنهه إلا الله تعالى ، ومثل هذا لا يتحقق إلا في الثواب.

– سميت النار جهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرها .

(**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ**) هذا من كلام الله تعالى

اختلف العلماء في المراد بالطريقة : على قولين :

فقيل : لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها (لأسقيناهم ماءً غدقاً . لنفتنهم فيه) أي كثيراً، والمراد بذلك سعة الرزق ، ومما يدل لهذا القول أن الاستقامة سبب لسعة الرزق .

كما قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) .

وقال تعالى (وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ) .

وقال نبي الله هود عليه السلام (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ) .

وعلى هذا يكون معنى (لنفتنهم فيه) أي لنختبرهم ، أيشكرون فيستمرون على الاستقامـة ، أم تبطرهم النعمة فيرتدون ويكفرون .

- **قال ابن الجوزي** (وأن لو استقاموا على الطريقة) يعني طريقة الهدى .

وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن المسيب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والسدي، واختاره الزجاج.

قال لأن الطريقة هاهنا بالألف واللام معرفة، فالأوجب أن تكون طريقة الهدى.

فعلى القول الأول يكون المعنى: لو آمنوا لوسَّعنا عليهم (لِنَفْتِنَهم) أي: لنختبرَهم (فيه) فننظر كيف شُكْرُهم. والماء الغَدَق: الكثير. وإنما ذكر الماء مثلاً، لأن الخير كله يكون بالمطر، فأقيم مقامه إذ كان سببه . (زاد المسير) .

وقيل : (وألو استقاموا على الطريقة) طريقة الضلال والكفر (لأسقيناهم ماءً غدقاً) أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً ، ومما يدل لهذا القول :

قوله تعالى (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) .

وقوله تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ) .

- **قال ابن الجوزي** : وذهب قوم إلى أن المراد بها: طريقة الكفر، قاله محمد بن كعب، والربيع، والفراء، وابن قتيبة، وابن كيسان.

ويكون المعنى : لو استقامـوا على الكفر فكانوا كفاراً كلهـم، لأكثرنا لهم المال لنفتنهم فيه عقوبة واستدارجاً ، ثم نعذبهم على ذلك . (زاد المسير) .

والأقرب القول الأول .

- **قال الثعلبي** : قوله تعالى (عَلَى الطريقة) اختلف المفسرون في تأويلها :

فقال قوم : معناها وأن لو استقاموا على طريقة الحقّ والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين (لأَسْقَيْنَاهُم مَّآءً غَدَقاً) يعني أعطيناهم مالا كثيراً وعيشاً رغيداً ووسعنا عليهم في الرزق وبسطنا لهم في الدنيا { لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } لنختبرهم كيف شكرهم فيما خوّلوا .

ودليل هذا التأويل :

قوله سبحانه وتعالى : { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التوراة والإنجيل وَمَآ أُنزِلَ إِلَيهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم) .

وقوله سبحانه (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القرى آمَنُواْ واتقوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السمآء والأرض) .

وقوله تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

وقوله تعالى (فَقُلْتُ استغفروا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السمآء عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً ...) .

وقال آخرون : معناها وأن لو استقاموا على طريقة الكفر والضلالة وكانوا كفّاراً كلهم لأعطيناهم مالا كثيراً ولوسّعنا عليهم لنفتنهم فيه عقوبة لهم واستدراجاً ، حتّى يفتنوا فيعذبهم .

ودليل هذا التأويل :

قوله سبحانه (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) .

وقوله سبحانه وتعالى (وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ الناس أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بالرحمن) .

وقوله سبحانه (وَلَوْ بَسَطَ الله الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأرض) . (تفسير الثعلبي) .

– قوله تعالى (مَّاء غَدَقاً) الماء الغدق الكثير ، وخص بالذكر لأن الخير والرزق كله بالماء فأقيم مقامه .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى : (لنفتنهم) إن كان المسلمون فمعناه لنختبرهم ، وإن كان القاسطون فمعناه لنمتحنهم ونستدرجهم ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : حيث يكون الماء فثم المال ، وحيث يكون المال فثم الفتنة ، ونزع بهذه الآية .

– في الآية فضل الاستقامة ، فمن فضائلها :

أولاً : تتنزل عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وعدم الخوف .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) .

قوله [تتنزل عليهم الملائكة] : **قيل** : عند الاحتضار ، **وقيل** : يوم خروجهم من قبورهم ، **وقيل** : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث ، واختار هذا القول ابن كثير ، **وقال** : " وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً " .

ثانياً : الاستقامة سبب لبسط الرزق .

قال تعالى (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً) .

قال القرطبي : أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .

ثالثاً : أن الله أمر نبيه بالاستقامة .

قال تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) .

رابعاً : أن الله أمر بها .

قال تعالى (فاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) .

عن سفيان بن عبد الله قال . قلت : يا رسول الله ! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ؟ قال : قل آمنت بالله ثم استقم) رواه مسلم .

- **أسباب الاستقامة :**

أولاً : دعاء الله بالثبات .

كان ﷺ يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك) .

ثانياً : قراءة القرآن وتدبره .

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .

كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

وقال شيخ الإسلام : أعظم الكرامة لزوم الاستقامة .

(**وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً**) أي : من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه ، فلم يتبعه، وينْقَد له ، بل

غفل عنه ولهى ، (يسلكه عذاباً صعداً) أي شديداً موجعاً مؤلماً لا راحة معها .

● **قال الطبري** : ومن يعرض عن استماع القرآن واستعماله ، يسلكه الله عذاباً صعداً : أي شديداً شاقاً .

الفوائد :

١- أن الجن منهم المؤمن ومنهم الكافر ومنهم بين ذلك .

٢- أن الجني المؤمن يدخل الجنة .

وهذا مذهب جماهير العلماء ، ويدل لذلك :

- عموم قوله تعالى : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) .

- وقال تعالى : (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) .

- وقال تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) .

٣- أن الجني الكافر يدخل النار ، وهذا بالإجماع .

- قال تعالى : (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً) .

- وقال تعالى : (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) .

٤- ذم الاختلاف والبطر والأهواء .

٥- لا أحد يستطيع أن يهرب من الله .

٦- فضل الإيمان بالله .

٧- تنزيه الله عن الظلم ، لكمال عدله .

٨- أن من آمن بالله فلا ينقص حقه ولا يظلم .

٩- أن جهنم اسم من أسماء النار ، وسميت بذلك :

قيل : لبعد قعرها . وقيل : لغلظ أمرها .

١٠- أن الكفار هم وقود النار ، ووقود النار :

الأحجار . الكفار . الآلهة التي تعبد من دون الله .

- قال تعالى : (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة)

- وقال تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) .

(وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً (٢٢) إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً) .

[الجن : ١٨- ٢٤] .

(**وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً**) الأكثرون على أنه من جملة الموحى ، والواو عاطفة ، وأوحي إليّ أن المساجد مختصة بالله ، والمساجد : مواضع الصلاة والسجود لله وعبادته .

والمعنى : اعبدوا الله في هذه المساجد وحده ولا تشركوا معه أحداً ، وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الإشراك بالله في كنائسهم وبيَعهم .

وقيل : المراد بالمساجد أعضاء السجود ، أي : هي لله فلا تسجدوا بها لغيره.

● **قال ابن الجوزي** : قوله تعالى (وأن المساجد لله) فيها أربعة أقوال :

أحدها: أنها المساجد التي هي بيوت الصلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهُم أشركوا، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم.

والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبير، وابن الأنباري، وذكره الفراء. فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره.

والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلُّها، قاله الحسن. فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.

والرابع: أن المساجد: السجود، فإنه جمع مسجد. يقال: سجدت سجوداً، ومَسْجِداً، كما يقال: ضربت في الأرض ضرباً، ومَضْرِباً، ثم يجمع، فيقال: المسَاجِد، والمضارِب. قال ابن قتيبة: فعلى هذا يكون واحدها: مَسْجَداً، بفتح الجيم. والمعنى: أَخْلِصُوا له، ولا تسجدوا لغيره .

● **قال القاسمي** : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) أي : مختصة به (فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) أي : فلا تعبدوا فيها غيره . تعريض بما كان عليه المشركون من عبادتهم غيره تعالى بمسجده الحرام ، ونصبهم في التماثيل والأنصاب ، وبما عليه أهل الكتاب ، فإن المساجد لم تُشَدْ إلا ليذكر فيها اسمه تعالى وحده . ومن هنا ذهبت الحنابلة إلى أنه لا يجتمع في دين الله مسجد وقبر ، وأن أيهما طرأ على الآخر وجب هدمُه .

● **قال الشوكاني** : والمساجد : المواضع التي بنيت للصلاة فيها.

● قال الحسن : أراد بها كل البقاع ؛ لأن الأرض كلها مسجد.

● وقال سعيد بن المسيب ، وطلق بن حبيب : أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد ، وهي القدمان والركبتان واليدان والجبهة ، يقول : هذه أعضاء أنعم الله بها عليك ، فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله ، وكذا قال عطاء. وقيل : المساجد هي الصلاة ؛ لأن السجود من جملة أركانها ، قاله الحسن (فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ الله أَحَداً) من خلقه كائناً ما كان .

وأضاف– سبحانه– المساجد إليه، على سبيل التشريف والتكريم وقد تضاف إلى غيره– تعالى– على سبيل التعريف فحسب، وفي الحديث الشريف: «الصلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة في غيره، إلا المسجد الحرام .

(**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**) أي : وأنه لما قام عبد الله ورسوله محمد ﷺ يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن ويدعو إلى الله .

● **قال الرازي** : اعلم أن عبد الله هو النبي ﷺ في قول الجميع .

– وأطلق عليه وصف العبودية ، لأن العبودية لله أشرف الأوصاف التي يوصف بها البشر من الرسل والأنبياء وغيرهم ، ولهذا وصف الله تعالى نبيه بالعبودية في أعلى المقامات :

(**كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً**) اللبد : الكثير المتراكم والملتبد بعضه على بعض ، واختلف في معنى الآية :

فقيل : تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه .

● **قال ابن كثير** : وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير، وهو الأظهر، لقوله بعده (قل

إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً) أي قال لهم الرسول ﷺ لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته .

وقد روى الطبري بإسناد صحيح عن الحسن أنه قال : (وإنه لما قام عبد الله يدعوه) قال : لما قام رسول الله ﷺ يقول : لا إله إلا الله ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تكون عليه جميعاً) .

وقيل : أن الذين كادوا يكونون عليه لبداً هم الجن ، كادوا يكونون على رسول الله ﷺ لبداً ، أي جماعات يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام على رسول الله ﷺ للاستماع منه حين يقرأ القرآن .

● **قال ابن الجوزي** : وفي معنى الآية ثلاثة أقوال :

أحدها: أنه إخبار الله تعالى عن الجن يحكي حالهم. والمعنى: أنه لما قام يصلي كاد الجن لازدحامهم عليه يركب بعضهم بعضاً، حِرْصاً على سماع القرآن، رواه عطية عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الجن لقومهم لما رجعوا إليهم، فوصفوا لهم طاعة أصحاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وائتمامهم به في الركوع، والسجود، فكأنهم قالوا: لما قام يصلي كاد أصحابه يكونون عليه لبداً. وهذا المعنى في رواية ابن جبير، عن ابن عباس.

والثالث: أن المعنى: لما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدَّعوة تلبَّدت الإنس والجن، وتظاهروا عليه، ليبطلوا الحق الذي جاء به، قاله الحسن، وقتادة، وابن زيد.

(**قُلْ**) أي : قل يا محمد لهؤلاء الذين تلبدوا عليك مبيناً لهم منهجك وطريقتك وحقيقة ما تدعو إليه :

(**إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي**) أي : إنما أوحد ربي وحده .

(**وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً**) أي : ولا أشرك معه لا صنماً ولا بشراً ، وهذا تأكيد لعبادته .

وهذه دعوة كل الرسل : عبادة الله وترك الشرك :

قل تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

- وفي هذا أنه ينبغي للداعية أن يعلن دعوته ، وأن يظهر عائر دينه ، وأن يفتخر بدعوته وطاعته لله .

كما قال تعالى عن إبراهيم (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

وقال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

وقال تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) .

(**قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلَا رَشَداً**) أي : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ، وعبد من عباد الله ليس لي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل ، كما قال تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ) وقال تعالى (أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

(**قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ**) أي قل لهم أيضاً : إنه لن ينقذني من عذاب الله أحد إن عصيته ، أي : فلا أحد يستطيع نصرتي ودفع عذاب الله عني .

كما قال تعالى (قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(**وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً**) أي لا أجد ملجأً ولا نصيراً .

- **قال السعدي** : وإذا كان الرسول ﷺ الذي هو أكمل الخلق ، لا يملك ضراً ولا رشداً ، ولا يمنع نفسه من الله شيئاً إن أراده بسوء ، فغيره من الخلق من باب أولى وأحرى .

(**إِلَّا بَلَاغاً مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ**) فيهما قولان :

قيل : مستثنى من قوله : (قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً) ويكون المعنى :

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ : قل لمشركي العرب : إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً (إلا بلاغاً من الله ورسالاته) يقول : إلا أن أبلغكم من الله ما أمرني بتبليغكم إياه ، وإلا رسالاته التي أرسلني بها إليكم ، فأما الرشد والخذلان فبيد الله ، هو مالكه دون سائر خلقه ، يهدي من يشاء ويخذل من أراد .

كما قال تعالى (قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) .

وقيل : مستثنى من قوله (قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً) ويكون المعنى :

قل إني لا يجيرني منه ويخلصني إلا بلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) .

(**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) المعصية مخالفة الأمر ، والمعنى : ومن يعص الله ورسوله بمخالفة أمر الله ورسوله وارتكاب ما نهى الله عنه ورسوله بالكفر والتكذيب ، فالمراد بالمعصية هنا الكفر والتكذيب لقوله بعد ذلك (خالدين فيها أبداً) .

(**فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**) أي : فجزاؤه على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبداً ، أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

– وفي هذا أن أهل النار يبقون فيها مخلدين لا يخرجون أبداً ، لا تفنى ولا يفنى أهلها ، وقد ذكر الله تأبيد النار في ثلاثة مواضع من القرآن :

في سورة النساء .

قال تعالى (وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً . إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .

وفي سورة الأحزاب .

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً) .

وفي سورة الجن .

قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) .

وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (يؤتى بالموت على شكل كبش أملح فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت) متفق عليه .

وقال تعالى (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى) .

وقال تعالى (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرى . ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) .

● **قال ابن كثير** : أي لا يموت فيستريح ولا يحيا حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه ، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب وأنواع النكال .

(**حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ**) إما العذاب في الدنيا أو الساعة وهي يوم القيامة أو ساعة موتهم .

كما قال تعالى (حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة) .

(**فَسَيَعْلَمُونَ**) في ذلك الوقت حقيقة المعرفة .

(**مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً**) **أي** : سيعلم المشركون من هم أضعف ناصراً ومعيناً ، وأقل نفراً وحيداً ؟ هل هم أم المؤمنون الموحدون ؟ ولا شك أن الله ناصر عباده المؤمنين ، فهم الأقوى ناصراً والأكثر عدداً ، لأن الله معهم وملائكته الأبرار.

الفوائد :

١- أن طاعة رسوله سبب للرزق ورغد العيش .

كما قال تعالى : (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) .

وقال تعالى : (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) .

وقال نوح : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) .

٢- أن من أعرض عن الإيمان فإن له عذاباً شديداً موجعاً .

٣- تحريم دعاء غيره في المساجد وغيرها ، لكن في المساجد أعظم .

٤- تحريم السجود لغير الله .

٥- فضل رسول الله ﷺ لكونه عبداً لله، ولا شك أن العبودية لله من أشرف المناقب، بل هي أشرف المناقب.

وقد ذكر الله وصف نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات :

أولاً : في مقام التحدي .

قال تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ...) .

ثانياً : في مقام الإسراء .

كما قال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ...) .

ثالثاً : في حال إنزال القرآن .

كما قال تعالى : (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً) .

رابعاً : في مقام الدعوة إلى الله .

قال تعالى : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) .

٦- وجوب عبادة الله وحده من غير إشراك .

قال تعالى : (قل تعالوا أتلو ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) .

وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

٧- أنه لا يمكن أن تكون عبد لله إلا مع عدم الشرك .

٨- أن النبي ﷺ لا يملك شيء من حقوق الربوبية ، فليس بيده ضر ولا نفع .

٩- أنه إذا كان النبي ﷺ لا يملك شيئاً من ذلك ، فغيره من باب أولى .

١٠- أن معصية الله ورسوله من أسباب دخول النار والخلود فيها .

١١- أن النار باقية لا تفنى ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة .

وقد ورد ثلاث آيات في القرآن الكريم فيها تأبيد النار :

- قال تعالى : (ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً) . [النساء]

- قال تعالى : (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً . خالدين فيها أبداً) . [الأحزاب]

- وهذه الآية : (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً) . [الجن]

ومن الأدلة :

قوله تعالى : (إن المجرمين في نار جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون) .

١٢- تهديد الكفار بالعذاب الأليم في يوم القيامة .

(قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) .

[الجن : ٢٥ – ٢٨] .

(**قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ**) يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة والبعث ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد .

(**أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً**) أي مدة طويلة ، والمعنى أن وقوعه متيقن ، أما وقت وقوعه فغير معلوم .

والمقصود من الآية الكريمة: بيان أن العذاب نازل بهم قطعا ولكن موعده قد يكون بعد وقت قريب، وقد يكون بعد وقت بعيد، لأن تحديد هذا الوقت مرده إلى الله- تعالى- وحده .

- **قال الرازي** : المعنى أن وقوعه متيقن ، أما وقت وقوعه فغير معلوم .
- **قال ابن عاشور** : كان المشركون يكثرون أن يسألوا رسول الله ﷺ (متى هذا الوعد) و(عن الساعة أيان مرساها) وتكررت نسبة ذلك إليهم في القرآن، فلما قال الله تعالى (حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً) الآية علِم أنهم سيعيدون ما اعتادوا قوله من السؤال عن وقت حلول الوعيد فأمر الله رسوله ﷺ أن يعيد عليهم ما سبق من جوابه.

قال تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً) .

وقال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ) .

وقال تعالى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) .

وفي حديث جبريل قال ﷺ حينما سأله عن الساعة قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل) رواه مسلم .

- فإن قيل : أليس أنه قال ﷺ (بعثت أنا والساعة كهاتين) فكان عالماً بقرب وقوع القيامة ، فكيف قال : ههنا لا أدري أقريب أم بعيد ؟ قلنا : المراد بقرب وقوعه هو أن ما بقي من الدنيا أقل مما انقضى ، فهذا القدر من القرب معلوم ، وأما معنى

معرفة القرب القريب وعدم ذلك فغير معلوم .

– وفي ذلك أن كل حديث فيه تحديد متى الساعة أو عمر الدنيا فهو حديث باطل لا يصح .

(عَالِمُ الْغَيْبِ) أي : هو جل وعلا عالم بما غاب عن الأبصار، وخفي عن الأنظار .

– الغيب ما غاب عن العباد.

(**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً**) أي : فلا يطلع على غيبه أحداً من خلقه .

قال تعالى (قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ) .

وقال تعالى (فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ) .

وقال تعالى (وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) .

– وفي رد على أدعياء الغيب من السحرة والكهنة وغيرهم ، فمن ادعى علم الغيب فهو كافر .

(**إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ**) أي : إلا من اختاره الله وارتضاه لرسالته بنبوته ، فيظهره على من يشاء من الغيب ، فإنه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبره به .

وذلك أن الرسل ليسوا كغيرهم ، فإن الله أيدهم بتأييدٍ ما أيده أحداً من الخلق ، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته ، من غير أن تقربه الشياطين ، فيزيدوا فيه أو ينقصوا ، ولهذا تضمن القرآن والسنة النبوية الإخبار عن كثير من المغيبات السابقة واللاحقة وغيرها .

- **قال القرطبي** (إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ) فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه ؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات ؛ وفي التنزيل (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) .

وقال : والأَوْلى أن يكون المعنى : أي لا يظهر على غيبه إلا من ارتضى أي اصطفى للنبّوة ، فإنه يطلعه على ما يشاء من غيبه : ليكون ذلك دالا على نبوّته.

- **قال الآلوسى**: قوله (إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) أي : لكن الرسول المرتضى بظهره- جل وعلا- على بعض الغيوب المتعلقة برسالته ... إما لكون بعض هذه الغيوب من مباديها، بأن يكون معجزة، وإما لكونه من أركانها وأحكامها كعامة التكاليف الشرعية، وكيفيات الأعمال وأجزيتها، ونحو ذلك من الأمور الغيبية، التي بيانها من وظائف الرسالة.

بأن يسلك من جميع جوانبه عند اطلاعه على ذلك، حرسا من الملائكة يحرسونه من تعرض الشياطين، لما أريد اطلاعه عليه .

(**فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً**) أي : فإنه تعالى يرسل من أمامه ومن خلفه حرساً وحفظة يحفظونه من الجن .

كما قال تعالى (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وقال تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) .

(**لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ**) اختلف في معناها :

فقيل : ليعلم ـ أي الرسول ـ أن الرسل قبله قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ودافعت عنها .

واختاره : الطبري ، والواحدي ، والقرطبي ، وابن كثير .

- **قال الطبري** : وَأَوْلَى هَذِهِ الأَقْوَالِ عِنْدَنَا بِالصَّوَابِ ، قَوْلُ مَنْ قَالَ : لِيَعْلَمَ الرَّسُولُ أَنَّ الرُّسُلَ قَبْلَهُ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ .

وقيل : ليعلم الناس أن الرسل عليهم السلام بلغوا عن الله ورسالاته .

وقيل : أن المعنى ليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم .

والعلم ههنا مثله في قوله (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الذين جاهدوا مِنكُمْ) وقوله (لْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) وقوله (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) والمعنى : ليبلغوا رسالات ربهم فيعلم ذلك منهم.

ورجح هذا القول ابن جزي ، وأبو السعود .

- **قال ابن عاشور** : والمراد ليعلم الله أن قد أبلغوا رسالات الله وأدوا الأمانة علماً يترتب عليه جزاؤهم الجزيل .

(**وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ**) أي أحاط علمه بما عند الرسل ، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم .

(**وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً**) أي : عليم تعالى علم ضبط واستقصاء جميع الأشياء ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى عليه أمر .

الفوائد :

١- أن الرسول لا يدري متى وقت الساعة .

- قال تعالى : (قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً) .
- وقال تعالى : (إن الله عنده علم الساعة) .
- وقال تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها) .
- وقال تعالى : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو) .
- وقال رسول الله ﷺ وقد سأله جبريل عن الساعة : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل). رواه مسلم

٢- استئثار الله بعلم الغيب ، فلا يعلم الغيب إلا الله .

٣- أن من ادعى علم الغيب فهو كافر ، لأن ذلك من خصائص الله .

قال تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله) .

٤- قد يطلع الله تعالى من ارتضى أن يطلعه من الرسل على غيب خاص .

ومن أمور الغيب التي أخبر الله بها نبيه :

- قال تعالى : (غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) .
- وقال تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) .
- وقال تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) .

٥- بيان إحاطة علم الله بكل شيء وإحصائه تعالى لكل شيء علماً .